تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الحادية عشرة - العددان ١٢٥ / ١٢٦ - آذار (مارس) - نيسان (ابريل) ١٩٨٩ - الموافق رجب - رمضان ١٤٠٩ هـ



□ جانب من سور مدينة فاس في المغرب، هذه المنطقة التي عرفها ابن خلدون معرفة صحيحة.



□ جامع الكتبية في مراكش، من بدائع نماذج الفن المعماري الاسلامي

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٢٥/١٢٦ ــ آذار ــ نيسان ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	السعر	البلد	السعر
لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

- في لبنان: ١٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية ابو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 15 No. 125/126 - March-April 1989

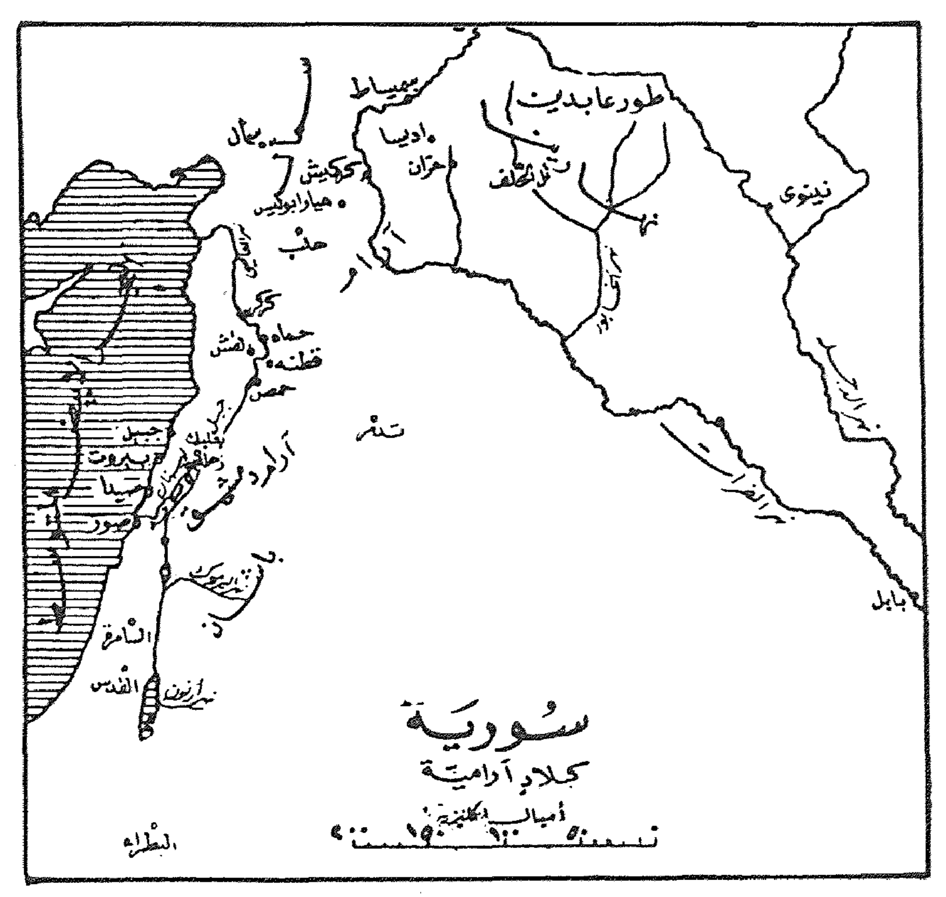
ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الجَوْلان في العهد القديم



غسان الحلبي

المجلس الدرزي للبحوث والإنماء

جالساً، على كرسيّ ذي عجلات، دعا رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن الكنيست، لسنّ قانون ينصّ على «تطبيق قانون الدولة الإسرائيليّة وصلاحيّاتها وإدارتها على مرتفعات الجَوْلان». كان ذلك في الرابع عشر من شهر كانون الأوّل عام ١٩٨١ عندما وافق الكنيست على القرار المذكور بأكثرية غالبة. وكان بيغن قد ألقى خطاباً قبل المباشرة بعمليّة التصويت استهلّه قائلاً: «لن نجد في بلدنا أو خارجه رجلاً جادّاً درس تاريخ أرض إسرائيل، في وسعه أن يحاول إنكار أن هضبة الجَوْلان كانت على مرّ أجيالٍ عديدةٍ جزءاً لا يتجزّأ من أرض إسرائيل.»(١).

لم يكن هذا هو المبرّر الوحيد الذي استخدمه بيغن لحثّ النوّاب على الموافقة، ولكنّه كان، من دون شكّ، المبرّر الأكثر تمويهاً لحقيقةٍ تاريخيَّة، يُستخدم لإثارة كنين الوجدان القومي في سبيل طمس القَدْر الأكبر من الوقائع المأساويّة التي يشرّعها القرار المذكور. فالحقيقة الجليَّة التي تثبتها الدراسات الرصينة ويؤكّدها الباحثون الجادّون في تاريخ بني إسرائيل تؤكّد أن «نبذ المتداول» هو الجوهر في مجال الدراسات التوراتيّة[٢]. حتّى أن المنهجيَّة المتّبعة في الكثير من المدارس المهتمّة بدراسة العهد القديم تعتمد القراءة النقديّة له[٣]، فتراها تذهب بعيداً في الكشف عن التناقضات التي تطرحها الروايات التوراتيَّة، وتدأب في البحث الشاقّ عن تحديد المواقع الجغرافيَّة المذكورة في تلك الصفحات العتيقة، وتسعى جاهدةً لعقد المقارنات مع ما يستجدّ اكتشافه في الحفريّات من آثار وعادِيَّات. كلّ هذا بحثاً عن الحقيقة الحيَّة في روايةٍ استحوذَتْ على شيءٍ منها واستعصى الغالبُ الأغلب من تفاصيلها على اليقين، فعصفت به الشكوك حتّى أنّك تراه غارقاً في ظلمة النظريّات المتضاربة التي يُكذّبُ بعضُها بعضاً[٤].

سيتطرّق هذا البحث إلى تاريخ الجَوْلان(*)، تلك المنطقة التي يحدّها غرباً نهر الأردن في مجراه الأعلى، المنطلق من ينابيعه في جبل الشيخ إلى بحيرة طبريّا، والّذي يخرج منها باتجاه البحر الميت، ينتهي هذا الحدّ في نقطة مصبّ نهر اليرموك في الأردن. أمّا جنوباً فيحدّها نهر اليرموك وشمالاً سفوح جبل الشيخ وشرقاً نهر العلّان الذي يمثّل حدود هذه المنطقة مع حوران المجاورة.

والجَوْلان، حسب حدوده التّاريخيَّة تلك، يؤلّف مَفْصِلاً مزدوجاً بين كلٍّ من شرقيّ الجنوب اللبناني وغربيّ الشمال الأردني، وبين غربيّ الجنوب السوري مع الجليل في فلسطين. وقد بلغَتْ خطورة أهميّته الاستراتيجيَّة حدّها الأقصى في الصراع العربي الإسرائيلي الحالي، فقد كانت أرضه المسرح الوحيد على الجبهة الشرقيَّة لأشرس العمليّات العسكريَّة في حرب ٦ تشرين عام ١٩٧٣، بالرغم من أنّه يُمثّل ١/٧ من طول خطوطها مع العدوّ.

يتناول هذا البحث افتراضاً مغلوطاً[٥]، يضطرّه إلى التسليم، جدلاً، بصحّة الرواية التوراتيَّة في الأسفار التي تروي قصّة خروج موسى من مصر إلى شرقيّ الأردن، ومن بعده خليفته يشوع بن نون إلى فلسطين، للبرهنة على أنّه، وحتّى في العقيدة الدينيَّة لليهود، لم تكن منطقة الجَوْلان جزءاً من أرض بني إسرائيل، لا في عصر موسى وخليفته، ولا في عصر داود ومملكته، ولا أيضاً في عصر السبي والتيه. إن التّاريخ العبريّ نفسَهُ يؤكّد أن هذه المنطقة كانت جزءاً من سوريا، منذ ما قبل قدوم العبرانيين إلى زمن الفتح العربي الإسلامي وحتّى حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وإذا كان آباء الصهيونيَّة الحديثة يعتبرون أن التوراة هي «الصكّ التاريخي» الذي يثبت ملكيَّة فلسطين وما جاورها ـــ والمُلْك لله في كلّ حال ـــ، فإن الحقيقةَ تقضي بالقول إذاً أن مدوّنات التاريخ الآشوري والمصري والحثّي واليوناني والروماني والبيزنطي والصليبي هي، بالضرورة، صكوك تاريخيَّة تثبت ملكيَّة الأرض للمستعمرين المذكورين، وهو، كما يبدو لبدائه العقول، باطل. إن الشعوبَ التي بادت عن هذه الأرض لا تملك حقّ ملكيّتها، وإنّما يملكه من تميَّزت إقامته بالثّبات منذ آلاف السنين وحتّى يومنا الحاضر، وهو، كما يبدو لبدائه العقول، حقّ صُراح.

الشعوب الساميّة

لقد اتّفق العلماء المختصّون في دراسة تاريخ الشعوب التي تعاقبت فوق مسرح الشرق الأدنى في الأزمنة القديمة على إطلاق تسمية «السّاميّة» عليها. لم يُعتمد هذا الاسم اعترافاً بحقيقةٍ تاريخيَّة تزعم أن السّاميّين تسلسلوا من الابن الأكبر لنوح كما قالت التوراة، وإنّما لأنّ الدراسات والبحوث توصّلَتْ إلى نتائج علميَّة دفعت بأولئك العلماء إلى الاتّفاق عليه مصطلحاً قابلاً لتعميم التسمية. من هذه النتائج أن الأشوريّين البابليين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين والعرب والحبش تكلّموا لهجات متعدّدة للغةٍ واحدة، وأن تلك اللهجات هي «تنويعات للُغَة السّاميَّة الأم»[٦] نظراً لوجود نواحي تشابه جوهريَّة في كيانها الأصل. إن التشابه يظهر

(*) يُقصد بالجَوْلان هنا ليس فقط مرتفعات الهضبة، بل وسهلها أيضاً.

أيضاً لدى المقارنة بين البنى الاجتماعيّة والعقائد الدينيّة والطّباع النفسيّة لتلك الشعوب. هذا ما فتح الباب لإطلاق النظريّات حول منشأ هذه الجماعات، وإذا كانت حقًّا، في ما مضى من الزّمان، «تتكلّم اللغةَ نفسَها وتعيش في المكانِ نفسه قبل أن تحصل بينهم الاختلافات»[٧].

من أشهر النظريّات التي أُطلقت واعتمِدت في هذا الباب، أن الجزيرة العربيّة كانت الموطن الأصلي لتلك الشعوب التي تعرّضت منذ القدم وعبر الأزمان لضغوط سكّانيّة خطيرة دفعت بقاطنيها إلى التوجّه شمالاً، نحو الهلال الخصيب، طلباً للماء والكلأ، وذلك كلّما أدّت تلك الزيادات إلى تفاقم الوضع المعيشي، فتشكّلت عبر التاريخ موجات هجرة تفصل بينها مئات السنين. أقدم هذه الهجرات كانت هجرة الآموريين، ثم تلتها موجات الكنعانيين فالاراميين فالعبرانيين، ولاحقاً النبط والعرب[٨].

العبرانيّون «قبيلةٌ ساميةٌ خرجت من الصحراء»[٩] واتّجهت شمالاً، ومن هنا تبدأ الرواية التوراتيّة في سرد قصّة الآباء الأوّلين للشعب اليهودي، فتروي في سِفرها الأوّل قصّة إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب الذي أنجب اثني عشر ولداً، أحدهم يوسف الذي بِيعَ لتجّارٍ ذهبوا به إلى مصر وباعوه بثمنٍ بخسٍ، ثم كانَ ما كان من قصّته المشهورة. وعاش العبرانيّون في مصر حتى حلول الثلث الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد حين خرج موسى بالشعب المختار من مصر إلى أرض الميعاد.

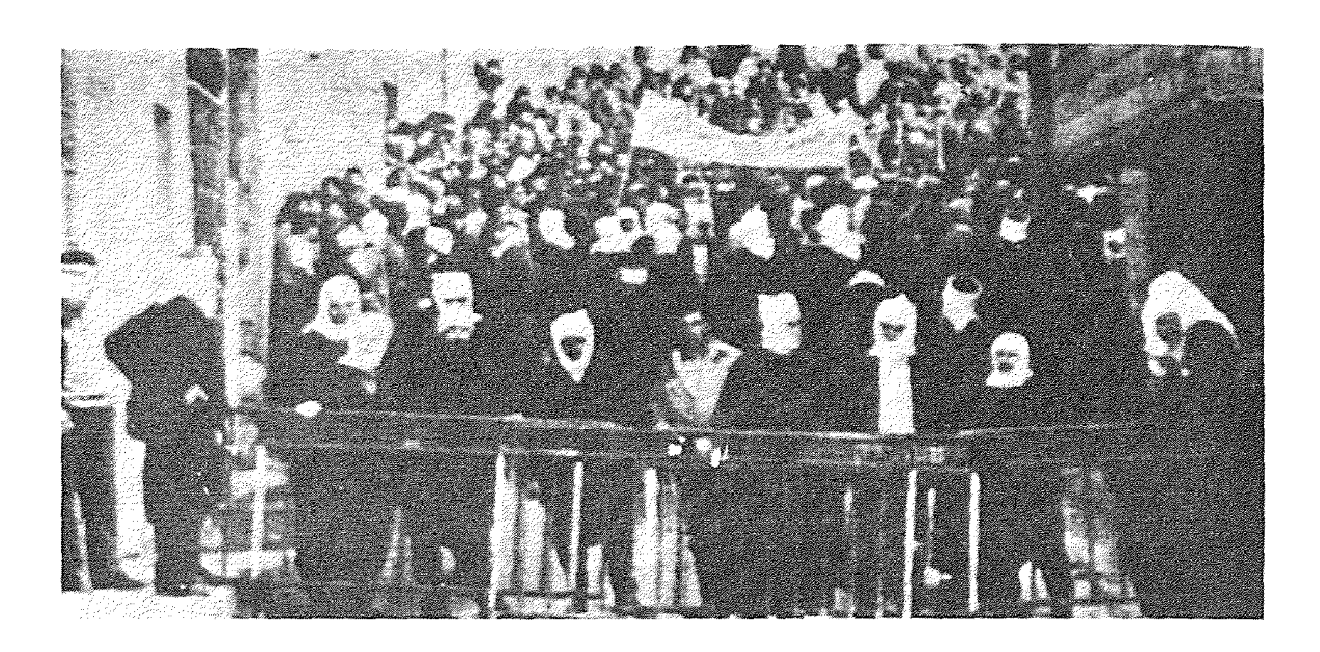
سنتعقّب خطوات نبيّ التوراة حسب روايتها، ونحاول ما أمكنتنا النصوص والمصادر أن نحدّد الأمكنة الجغرافيّة التي كانت مسرحاً للأحداث، محاولين بذلك رسم الحدود التي وضعتها التوراة نفسها لتمدّد الشعب العبراني آنذاك، ونتأكّد بعد ذلك من صحّة المقولة التي تعتبر أن الجَوْلان كان، تاريخيًّا، جزءاً لا يتجزّأ من أرض إسرائيل.

الغزو العبراني

بعد أن خرج موسى من مصر، استقرّ والشعب العبراني في بريّة فاران في قادش[١٠]، وهي الواحة الرئيسيّة الواقعة في شمال سيناء على بُعد ٧٥ كلم جنوبي بئر سبع غرباً[١١].

ومن هناك أرسل رجالاً ليتجسّسوا أرض كنعان[١٢]، وكانت مهمّتهم محدّدة باستطلاع أحوال الشعب والأرض والمدن. فذهبوا ورجعوا بعد أربعين يوماً ليقولوا لموسى إن الأرضَ حقّاً تفيض لبناً وعسلاً، غير أنّ الشعبَ الساكن في الأرض معتزٌّ، والمدن حصينةٌ عظيمةٌ جدًّا[١٣]. وتُحدّد الروايةُ التوراتيّة بوضوحٍ أسماء الشعوب التي كانت مقيمة في تلك الأرضِ وانتشارها جغرافيًّا، «فعماليقُ مقيمٌ بأرض النقب، والحثّي واليبوسيّ، والأموريّ مقيمون بالجبل، والكنعانيّ مقيمٌ عند البحر وعلى ضفّة الأردن»[١٤].

إن التوراة تجعل من حثٍّ واليبوسيّ والأموريّ أولاداً لكنعان الذين منهم تفرّقت عشائر الكنعانيّين[١٥]. وينقل ابن خلدون عن ابن إسحق أن عمليق ابنٌ للأوذ بن سام، وهو لود في التوراة، ومنهم الكنعانيّون وبرابرة الشام[١٦]. بيد أن هذا التعليل المقرّر استناداً إلى أنساب سِفر تكوينيّة أمرٌ لا تثبته الدراسات العلميّة الحديثة حيث تتباين بنتائجها عنه، فترجّح أن علّة منشأ ذكر «العماليق» تعود إلى التأثّر العظيم الذي أصاب القادمين الجُدُد لدى رؤيتهم للأضرحة الأثريّة المبنيّة بحجارةٍ كبرى، وإنّ وجود الحثّيين واليبوسيين يرتبط بحركة الهنود — الإيرانيين أو الهنود الأوروبيين في الشمال التي كانت سبباً في قدوم عدد كبير منهم، وهم من غير الساميّين، جنوباً حتّى فلسطين[١٧]. وأمّا الأموريّون والكنعانيّون فهم يمثّلون الموجة الأولى من الهجرات الساميّة إلى المنطقة كما سبق ذكره. ويُلاحظ في هذا الصدد أن المصادر وإن تباينت في أحكامها المتعلّقة بأصل هذه الشعوب، فهي تتّفق ضمناً على وجودها، مُضافاً إليه الاتّفاق على تحديد الخصائص الأنثروبولوجيّة لهذا الوجود. فمن خصائص البداوة المتمدّنة التي يستقرئها الباحث في تاريخ الشعوب السّاميّة، تعلّقهم المتين بالمفهوم العشائري والقبلي الذي ينتقل معهم من عيش الصحراء المتقلقل إلى عيش الاستقرار في المدن، ممّا حدا بالأموريين والكنعانيين من بعدهم إلى العجز عن إنشاء دولةٍ قويّة موحّدة، وربّما إلى عدم التفكير أساساً في هذا الأمر، بل ظلّوا على حالتهم الاجتماعيّة — القبليّة الأولى من حيث انقسامهم إلى جماعات صغيرةٍ يحكم كلّ واحدةٍ منها مَلِك، فتضطرّ أمام هذا



□ مظاهرة شعبية في الجولان.

الواقـع إلى التجمّـع حوله في مدينةٍ لا تلبث أن تسعى دائبة إلى تحصينها وتقوية أسوارها. «وهذا هو بالضبط ما رآه جواسيس موسى من شعبٍ معتزٍّ ومدن حصينة»[١٨].

ثم أرسل موسى، من قادش، رُسُلاً إلى ملك أدوم ليستـأذنوه في العبـور من أرضه إلى شـرقيّ الأردن[١٩]. والأدوميّون بحسب الرواية العبريّة هم العشائر المتحدّرة من عيسو اخي يعقوب. وكان موطنها في الشرق والغرب من وادي العربة جنوبـي البحر الميت، وما زال هذا الوادي محتفظاً باسمه إلى يومنا هذا. وبالرغم من القرابة التي كانت تربط الشعبَيْن، فقد أبـى ملك أدوم أن يدع العبرانيين يمروا في أرضه، وهدّد بلقائهم بالسّيف، فتحوّل بنو إسرائيل عنه[٢٠]، ورحلوا جنـوباً بقصـد الالتفاف إلى ما وراء أرض أدوم شرقيّ وادي العربة.

كانت المنطقة الممتدّة من شرقي البحر الميت إلى حوران شمالاً مقسّمة إلى ثلاث ممالك كبيرة[٢١] وهي: ١ ــ مؤآب في الجهة الشرقيّة من البحر الميت، ويحدّها شمالاً نهر أرنون الواقـع في منطقة تسمّى اليوم «وادي الموجب» في الأردن[٢٢].

٢ ــ أمّـون وهـي أرض سيحـون ملك الأموريين، وتمتدّ من الضفاف الشماليّة لنهر أرنون إلى الضفاف الجنوبيّة لنهر يبّوق، وهو اليوم يدعى «نهر الزرقاء» في الأردن[٢٣].

٣ ــ مملكة عوج ملك باشان وتشمل أرضه المناطق الممتدّة من ضفاف يبّوق الشماليّة إلى حوران.

بـدأت عملية الغـزو المقدّس عنـد وصـول العبرانيين إلى وراء أرنون، وإذا كان الرّبّ قد حذّرهم ــ كما تقول التوراة ــ من السيطرة على أراضي الأدوميين والعمونيين[٢٤] فمرُّوا من دون السيطرة عليها، فإنّ أرض الأموريين كان لا بُدّ لها من أن تسقط في أيديهم.

كان البابليون، فيما مضى من الزمان، وقبل هذه الأحداث بأكثر من ثمانمائة عام، يدعون سوريا وفلسطين أرض الأموريين[٢٥]. وللأموريين حضارة متقادمة في العصور، فقد أسّسوا عدة سلالات من أشور شمالاً وحتى لارسّا جنوباً بين عام ٢١٠٠ وعام ١٨٠٠ ق.م. وأهمّها سلالة بابل التي انتسب إليها حمورابـي المشرّع العظيم[٢٦]. وقد أكّدت المكتشفات الحديثة في عالم الحفريّات على وجودهم التاريخي والحضاري في تلك المناطق منذ ما قبل قدوم الغزاة الجدد بعدّة قرون. غير أن المؤرّخ العبري لا يعبأ بتاتاً بتاريخ تلك الشعوب إلّا من حيث وجودها العدائي المسبق في أرض الميعاد، بما يفرض حتميّة الدخول معها في صراعٍ دونه مصير الشعب المختار. وهكذا، ضرب إسرائيل سيحون ملك الأموريّين بحدّ السّيف، وورث أرضه من أرنون إلى يبّوق[٢٧]، واستولى على جميـع مدنه

وسكن فيها مع شعبه، «في حشبون وجميع توابعها»[٢٨]. وحشبون هي عاصمة الملك سيحون، تقع شرقيّ الأردن في بُعدٍ يبلغ حوالي عشرين ميلاً بموازاة الطرف الشمالي للبحر الميت[٢٩].

وتتابع التوراة في بقيّة سِفر العدد سرد عمليّة الغزو لتلك الأرض، حيث صعد العبرانيون في طريق باشان للقاء ملكها عوج الذي خرج للحرب واصطدم مع الشعب القادم، فضرب بالسيف هو وبنوه وجميع قومه حتّى لم يبقَ له ناج، وورثوا أرضه[٣٠]. كان موقع المعركة في أذرعي، فمنهم من يجعلها درعا الحالية في حوران[٣١] ومنهم من يجعلها ازرع[٣٢].

بعد هذه الانتصارات، عاد موسى ليستقرّ وشعبه في مخيّم شطيم في وادي الأردن، شرقيّ النهر مقابل أريحا[٣٣]. ومن هناك تطلّع موسى إلى أرض الميعاد من على جبل العباريم، وأبصرها، وكان دخولها محرَّماً عليه، حيث سيتمّ بعد وفاته على يد خليفته كما ذكر.

الاستيلاء على عِبر الأردن

في هذه الأثناء، تطلّع سبطان ونصف من اسباط إسرائيل الاثني عشر، وهم بنو جاد وبنو راوبين ونصف سبط منسّى إلى الأرض التي حولهم في شرقيّ الأردن، فلاحظوا أنّها صالحة لرعاية الماشية، غنيّة بالمياه والمراعي، فطلبوا من موسى أن يورثهم إيّاها على أن لا يرثوا شيئاً من أرض الميعاد في المستقبل[٣٤]. فأعطى لهم موسى مملكة سيحون ملك الأموريين، ومملكة عوج ملك باشان[٣٥]، فاستقروا فيها.

إنّ التحديد الجغرافي لكلٍّ من حصّة بني جاد وبني رأوبين لا يثير كثير لغط، حيث امتدّت الحصّتان من أرنون جنوباً إلى يبّوق شمالاً[٣٦]. بيد أن تحديد الحصّة الثالثة التي نالها نصف سبط منسّى يكتنفه الغموض ممّا أوقع الكثير من المصادر القديمة والحديثة في تناقضٍ ملحوظ.

وأوّل ذكر لحصّة نصف سبط منسّى ترد في سفر العدد حيث يقول[٣٧]: «ومضى بنو ماكير بن منسّى إلى جلعاد، فاستولوا عليها وطردوا الأموريين الذين فيها، ومضى يائير بن منسّى واستولى على مزارعها وسمّاها مزارع يائير، ومن نولج استولى على قنات وتوابعها».

ويرد تحديدها للمرّة الثانية في سفر التثنية[٣٨] حيث يقول: «... وباقي جلعاد وكلّ باشان، مملكة عوج، أعطيتهما لنصف سبط منسّى، منطقة أرجوب كلّها وأرض باشان كلّها، فأخذ يائير بن منسّى منطقة أرجوب كلّها، إلى حدود الجشوريين والمعكيين، وسمّى باشان باسمه». ثم يرد تعيين هذه الحدود أيضاً في سِفر يشوع هكذا[٣٩]: «وعوج، ملك باشان... المقيم بعشتاروت وادرعي، وهو متسلّط على جبل حرمون وسلكة وكلّ باشان، إلى حدود الجشوري والمعكي، وإلى نصف جلعاد... هذه الأرض أعطاها إرثاً لنصف سبط منسّى». وقد ذُكرت هذه الحدود أيضاً في غيرها من المواضع.

الجَوْلان: مدينة ــ ملجأ

هناك أيضاً تفصيلٌ هام يُضاف إلى هذه المعالم الحدوديّة لحصّة نصف سبط منسّى. ففي الشريعة الموسويّة تدبيرٌ يُطبَّق على القاتل عن غير عمد هو نفيه إلى مدينة مَلجأ يفرزها قائد الشعب لتنفيذ هذا التدبير، حسب ما ورد في سفر الخروج: «الذي لم يتعمّد القتل بل أوقع الله في يده، فأنا أجعل لك مكاناً *يهرب إليه*». وهكذا، فقد حدّد موسى مدينة «جَوْلان في باشان للمنسيين»[٤٠] كمدينة ــ ملجأ يهرب إليها القاتل عن غير قصد.

وهذا هو أوّل ذكر في التوراة للجَوْلان.

إن أوّل ما يُلاحظ في هذا الصَّدد، أن الاسم وقع على مدينةٍ وليس على منطقةٍ كبيرة كما هو اليوم. إن تلك التسمية المحدودة لن تُعمَّم على مقاطعةٍ واسعة إلّا بعد حوالي الألف سنة من تاريخ بداية الغزو العبري وذلك في العهد اليوناني ــ الروماني حيث أُطلق اسم «جولانيتس» على منطقةٍ، كانت هضبة الجَوْلان كما هي معروفة في يومنا هذا، تُشكّل جزءاً منها[٤١].

وهذا ما يثير سؤالاً دقيقاً: أين كان إذاً موقع تلك المدينة في زمن موسى؟

لقد دأب العديد من الباحثين للإجابة على السؤال، فتنوّعت الأجوبة من حيث دقّة التحديد، لكنها أجمعت على أن ذلك الموقع كان خارج حدود منطقة الجَوْلان كما تظهر على الخرائط الحديثة[٤٢].

فقد حدّد موقعها الأب غرولّلنبرغ بقرية «سحم



الجَوْلان» الحالية[٤٣]، ومنهم من جعله في قرية «نوى» الحالية[٤٤]، كما أنه ورد في الموسوعة البريطانيَّة أن موقعها كان في منطقة حوران[٤٥].

فيا لها من مفارقةٍ عجيبة، أن يكون موقع المدينة التاريخي ما زال في سوريا، بينما تضمّ إسرائيل منطقة بأكملها بحجّة أن لها حقّاً تاريخيًّا مزعوماً فيه!

المنهجية التاريخيَّة للعهد القديم

ضمن اية حدود إذاً كانت تقع هضبة الجَوْلان وسهلها آنذاك؟ وما كان اسمها؟

هذا ما يعيدنا إلى البحث في قضيّة حدود نصف سبط منسّى كما وردت في التوراة نفسها. ولكن لا بُدّ لنا قبل ذلك من استطراد يتعلّق بالمنهجيَّة التاريخيَّة لنصوص الشريعة العبريَّة. فإن الأحداث التي لخّصناها جرت، حسب تقديرات الباحثين، في ما بين ١٣٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. والرواية التوراتيَّة التي كُتبت تعود إلى ما بعد هذا التاريخ بقرون عديدة «فأسفار موسى يجب أن تكون قد جُمعت وقُبلت واعترف بقدسيّتها في القرن الخامس قبل الميلاد حوالي عام ٤٤٤. وكُتُب الأنبياء حوالى ٢٥٠ و ٣٠٠ ق.م. والكتب المقدّسة بين ١٥٠ ق.م. إلى ١٠٠ بعد الميلاد»[٤٦]. اي بعد حصول السبي للشعب اليهودي لعدّة مرّات.

وإذا كان العبران السبّاقين إلى تدوين تاريخهم بأسلوب الرواية المقدّسة، فإنّ مآسي السبي والتّيه دفعتهم إلى وضع الأساس المعنوي للوطن الموعود. وإذا كان البحث العلمي يُثبت أن استقرار العبران في الجزء الجنوبي من سوريا (فلسطين)، كان في بقعةٍ صغيرة لا تتجاوز العشرين ميلاً عرضاً في خمسين ميلاً طولاً[٤٧]، فإن مدوّني الروايات التوراتيَّة جعلوا من تلك الفترة عَرْضاً ملحميًّا أرادوا له أن يكون الضمانة التي باستطاعتها أن تُلهب الأفئدة تحناناً إلى أرض الميعاد بعد أن فعل الشتات فعلَهُ في تشرذم الشعب، والسيف والنار فعلَهما في أورشليم وهيكلها القديم.

هذا ما يجعل من كلّ محاولةٍ لضبط الحدود الجغرافيَّة لتلك الأسماء المتغيّرة نوعاً من الغوص في رمل متحرّك خاض فيه الكثيرون من أرباب التأريخ والبحث. غير أن الدراسة النقديَّة

للنصوص التوراتيّة، والمكتشفات المثيرة في عالم الحفريّات والآثار، والدراسات المتعمّقة في تلك المواضيع، جعلت من عمليّة الغوص تلك فعلاً ممكناً يتقدّم فيه اليقين على حساب الأساطير القوميَّة وما يكتنفها من ضباب التشويه.

وبدافع من تلك البوادر المشجّعة سنبحث أمر تحديدُ تلك الحدود.

تفصيل حدود حصّة نصف سبط منسّى

ورد معنا، في التحديد الأوّل السالف الذكر، أن يائير بن منسّى مضى إلى جلعاد واستولى على مزارعها وسمّاها مزارع يائير. ولا يختلف المحقّقون حول تحديد الموقع الجغرافي الحالي لجلعاد. فهي «قطر جبليّ شرقيّ الأردن، يشتمل البلقاء الحديثة»[٤٨]. وفي الإمكان تحديد موقع «مزارع يائير» في هذه المنطقة على الخرائط الجغرافيّة المتعلّقة بالموضوع[٤٩]. وفي كلّ الأحوال، فإنّ هذه المنطقة تقع جنوبي نهر اليرموك.

ويرد في التحديد الثاني لحصّة نصف سبط منسّى الوارد في سِفر التثنية أن «باقي جلعاد وكلّ باشان، مملكة عوج، منطقة أرجوب كلّها أُعطِيت لهم، «إلى حدود الجشوريين والمعكيين».

وهنا أيضاً، يتّفق المحقّقون حول الموضع الأصل لباشان، ولكن الآراء تتضارب حول تحديد تخوم هذه المملكة. فالمتّفق عليه أنّ «حوران هي باشان في التوراة»[٥٠]، غير أنّ اشتمال بعض الآيات التوراتيَّة المتعلّقة بحدود مملكة عوج على ذكر جبل حرمون أوقع بعض الباحثين في خطأ التعميم من دون الأخذ بالحسبان تضارب تلك الآيات نفسها.

فمنهم من يجعلها «البثنيَّة» الحالية حيث كان موقعها بين جبلي حرمون وجلعاد شرقي نهر الأردن، ونسبت إلى جبلٍ فيها اسمه باشان وهو جبل حوران اليوم[٥١]. ومنهم من حاكى في تعريفه بتلك الحدود بعض الآيات دون أن يحاكي بعضها الآخر، فقال: «إن مملكة عوج وبلاد باشان امتدّت من وادي أرنون (وادي المحجب الآن) إلى جبل حرمون[٥٢]. وكان من نتيجة هذا التحديد أن نصيب نصف سبط منسّى بات شاملاً جميع السهول الواقعة على عدوة الأردن الشرقيَّة بين بحيرة طبريّا جنوباً وبحيرة الحولة شمالاً حيث الجَوْلان الآن[٥٣].

وأمّا القسم الآخر من الباحثين فقط تحفّظ أمام هذه العقدة، ولم يُطلق إلّا الأحكام المدروسة والموثوق بها، فباشان «تقتصر على السهل الواقع شرقيّ الجَوْلان وغربيّ اللّجا وجبل الدروز»[٥٤]. ويُلاحظ في هذا التحديد أن منطقة الجَوْلان الحالية ظلّت خارج حدود باشان. وقد حدّد موقعها مصدر آخر بأنّها كانت في موقع محافظة درعا الحاليّة في سوريا[٥٥]، ومن المعروف أن منطقة الجَوْلان تقع حاليًّا في محافظة القنيطرة. ومن ناحيةٍ أخرى فإن الخرائط التي تثبتها المراجع المختصَّة في متنها تُثبت هذه الحقيقة، حيث يظهر اسم باشان فوق حوران واللجاه، بينما تظهر منطقة الهضبة وسهلها خارج تلك الحدود[٥٦].

وفي عودةٍ إلى التحديد التوراتي الثاني لحصّة نصف سبط منسّى، نجد أن مملكة عوج تتضمّن منطقة أدجوب التي كانت من نصيبهم أيضاً، وأدجوب هي «إقليم في باشان»[٥٧] حيث هي منطقة «اللجاه»[٥٨] في جبل حوران اليوم.

وأمّا المدن الوارد ذكرها في تلك الرسوم التوراتيَّة، فتقع كلّها في حوران كما هي معروفة اليوم، فقنات هي «قنوات» الحالية بإجماع المحقّقين[٥٩]، وسلكة هي صلخد الحاليّة[٦٠]، وأدرعي هي «درعة»[٦١] الحالية، أو «إزرع»[٦٢] كما عند آخرين.

يبقى لدينا مَعْلَمٌ في تلك الرسوم لم نتناوله بعد بالبحث والتدقيق. فقد ورد في كلا التحديدَيْن الواردَيْن في سِفري التثنية ويشوع ذكر امتداد نصيب نصف سبط منسّى «إلى حدود الجشوريين والمعكيين». أو «حدود الجشوري والمعكي». وقد حدّدت بعض المراجع حدود باشان الشرقيَّة بهذا الفاصل[٦٣]، فمن هو الجشوري والمعكي؟ وأين تقع حدودهما، وبالتالي منطقتهما؟

وإذا وضعنا «معكة والمعكيين» جانباً، لأن ما يهمّنا هنا هو «جشور»، فإنّنا نجد إجماعاً في المصادر التي تنبّهت لوجود هذه المملكة الصغيرة على أنّ موقعها كان في شرقيّ نهر الأردن في مجراه الأعلى وغربي باشان، حيث يحدّها شمالاً جبل حرمون وجنوباً نهر اليرموك[٦٤]. وهذا هو بالضبط



موقـع منطقة الجَوْلان الذي احتلّته إسرائيل في حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ للميلاد.

«و «جشور» اسم عبري معناه «جسر» كانت مقاطعة واقعة بين حرمون وباشان، وعلى حدودها يوجد جسر على نهر الأردن بين طبرية والحولة يُعرف بجسر بنات يعقوب[٦٥]، وما زال يُعرف بهذا الاسم إلى يومنا هذا. والذي دعا الباحثين إلى الاهتمام بهذه المقاطعة والبحث عن موقعها هو ما ورد في سِفر صموئيل الثاني عن أبشالوم ابن الملك داود، فبعد أن قتل الملك أمنون الذي كان قد اغتصب أخته، هرب من أبيه «وذهب إلى تَلْماي بن عمّيهود، ملك جشور»[٦٦]، ولبث هناك منفيًّا ثلاث سنوات. وهذا يدلّنا على أن «جشور» بقيت مملكة مستقلّة حتّى أيام داود الملك، وإلى ما بعد ذلك.

وتجمـع الأبحاث على تحديد موقعها كما ورد أعلاه. وقد استدرك صاحب «تاريـخ سورية» هذا الأمر بإضافة هامش إلى تاريخه يقول فيه: «الأظهر أن مملكة هذا الملك (جشور) كانت في جنوبـي جبل الشيـخ وشمالي السلط حيث الجَوْلان والجيدور الآن»[٦٧]. وهذا ما تؤكّده أيضاً الخرائط المثبتة في المراجـع المختصّة حيث يظهر اسم «جشـور» Geshur فوق منطقة الجَوْلان وهي تخلو من أيّ اسم آخر[٦٨].

لقد حدّد العهد القديم بوضوح تام هويّة «جشور» الجغرافيّـة، حيث قال في الإصحـاح الخامس عشر من سِفر صموئيل الثاني على لسان أبشالوم مخاطباً داود الملك: «.. إن عبدك نذر نذراً حين كنتُ مقيماً بجشور في أرام». وهذا ما يدعونا بدوره إلى السؤال عن آرام والآراميين.

الآراميّون

مرّ معنا في بدايات هذا البحث أن الآراميين كانوا من الشعوب الساميّة التي انتقلت من مكانٍ ما، يُرجَّح أنه شبه الجزيرة العربيّة، إلى الشمال. وقد شكّلوا الموجة الثالثة الكبرى لهجرة تلك الشعوب من موطنها الأصلي إلى بلاد الرافدَيْن حيث لم تلبث حرّان أن أصبحت من أعظم مراكز الحضارة الآراميّـة قبل احتـلالهم دمشق[٦٩]. واستمـرّ الآراميون بانتشارهم مغيّرين بذلك الوجه العتيق للشرق الأدنى القديم[٧٠]. وتمّ لهم فتـح الشام عند

مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فتأسّست الممالك الآراميّة في بابل، وإلى الجنوب منها، وفي منطقة الجزيرة السوريّة، وعلى ضفاف الفرات من كركميش حتى عانة، وفي بلاد الشام الداخليّة من جبال طوروس حتّى نهر الزرقاء بالأردن(٧١).

ولم يكن في مقدور أيّ إمارة من هذه الإمارات التي قامت إلى جانب بعضها البعض أن تملك القوّة الكافية للهيمنة وتشييد دولة مركزيّة تخلف الدولة الحثّيّة(٧٢). ويعود هذا إلى أسباب عديدة، منها كما ذُكر سابقاً الطبيعة العشائريّة للشعوب الساميّة حيث نشأت هذه الممالك على أساس نظام قبلي بدائي لم يستطع أحد تبديله(٧٣). ومنها تعدّد الآلهة التي عبدوها، فقد قال الآراميّون بآلهة المناطق التي نزلوا فيها: آلهة الحوريّين والحثّيين والبابليين والكنعانيّين والفينيقيين(٧٤).

ومن أقوى الممالك الآراميّة التي نشأت وقامت بدور مميّز في تلك الفترة التاريخيّة كانت مملكة دمشق حيث أصبحت مملكة كبرى تمتدّ إلى الفرات من جهة وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة للأراضي العبرانيّة في الجنوب، ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير إلى آرام أو سورية(٧٥).

وقبل أن تقوم دمشق بدورها المميّز المشار إليه في توحيد القسم الكبير من تلك الممالك الآراميّة تحت سيطرتها، فإنّ تلك الممالك انتشرت كما ذكر آنفاً، وقد أُحصي عدد منها كآرام نهرايم وآرام فدّان وآرام دمشق وآرام صوبا وآرام معكة وآرام جشور(٧٦)، وإلى هاتَيْن الأخيرتَيْن أشارت التوراة في قولها: «إلى حدود الجشوريين والمعكيين».

فإذا أردنا الآن — وقد أخبرتنا الحقائق عن جليّة الأمر — ترجمة التعبير الوارد في التوراة نفسها عن «جشور في أرام» إلى الواقع الجغرافي الحديث، وجدناه يعني، وبكلّ دقّة، «الجَوْلان في سوريا».

العلاقة بين الآراميّين والعبرانيين

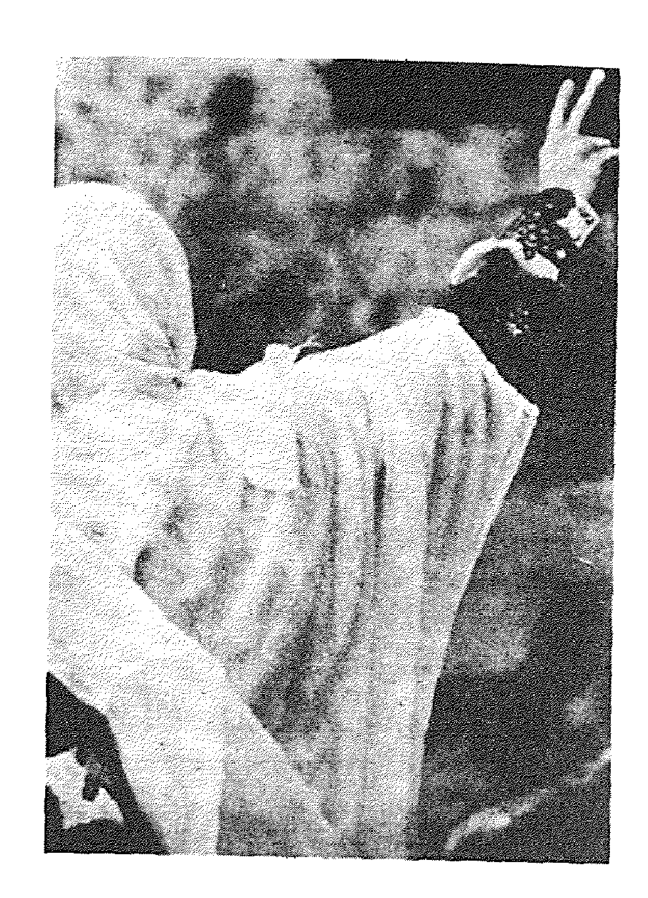
يبقى أن نشير إلى نوعيّة العلاقة القائمة بين الشعبَيْن العبري والآرامي في تلك المرحلة من التاريخ، لتوضيح مدى أهميّة استقلال تلك المملكة الصغيرة عبر مئات السنين. فبالرغم من أنّ الآراميّين هم على الأرجح أقرب الشعوب الساميّة إلى العبرانيين(٧٧)، فإنّ تاريخاً حافلاً بالحروب بينهما وسم العلاقة بين الشعبين منذ بداية الغزو العبري وحتّى القضاء على الآراميين على يد تغلات فلاسر الثالث الآشوري عام ٧٣٢ ق.م.

لقد توقّف الغزو العبري عند «حدود الجشوريّين والمعكيين» كما مرّ معنا آنفاً، وبقيت هاتان المملكتان الآراميّتان خارج تخوم الأراضي المحتلّة. وقد حافظتا، كما ذُكر، على استقلالهما عن النفوذ العبري حتّى في أيّام داود الملك، بالرغم من أنّ فتوحاته وصلت، كما قيل، إلى حدود مملكة حماه شمالاً، وأسّس مملكة كانت أقوى دولة محليّة ظهرت في فلسطين في أيّ عصر(٧٨). وفي القصّة التي ذكرناها عن أبشالوم بن داود ما يؤكّد استقلال جشور الآرامية في العهد الأقوى لملوك إسرائيل، وقد أشارت بعض المراجع إلى هذه الحقيقة بوضوح تام(٧٩).

وما لبثت المملكة العبرانيّة أن انقسمت على ذاتها بعد انقضاء عصر داود وابنه سليمان الذهبي، فقد خَلَف سليمان رَحَبْعام، وتمرّد يارُبعام على بيت داود فجعلوه ملكاً على إسرائيل(٨٠)، فانقسمت المملكة ونشبت الحرب بين رحبعام ملك يهوذا وياربعام ملك إسرائيل «كلّ الأيام» على حد تعبير الآية التوراتيّة(٨١).

واستمرّت الحرب بين المملكتين في أيام خليفتَيْهما آسا وبَعْشا(٨٢). ويبدو أن الحقد الدفين بينهما دفع بآسا ملك يهوذا إلى الاتّصال بالآراميّين فبعث برسالة إلى بنْهدد ملك دمشق وأرفقها بهديّة من ذهب وفضّة ودعاه إلى نقض عهده مع بعشا لينصرف هذا الأخير عنه(٨٣)، فما كان من بنهدد إلا أن اغتنم الفرصة المتاحة له وهاجم المناطق الشماليّة لمملكة إسرائيل. وكانت هذه الحادثة بداية للتدخّل الآرامي فيما بين مملكتَيْ العبران، مرّة لصالح هذه، وأخرى لصالح تلك، وفي أغلب الأحيان كان التدخّل استغلالاً لتفرّق المملكتَيْن ليتحكّم الملك الآرامي الدمشقي في أمورهما(٨٤).

رافق هذا محاولة بنهدد الثاني جمع قوى الملوك الآراميّين في تحالف كبير. فقد جمع بنهدد هذا «كلّ جيشه ومعه اثنان وثلاثون ملكاً، وحاصر السّامرة وحاربها»(٨٥). ويبدو أنّه منذ ذلك العهد بزغ نجم دمشق كقوّة توحيديّة للممالك الآراميّة



نصر.. لا بد آت

المستوطنون

الصغيرة، فجمعت تحت لوائها تلك القوى المبعثرة وأخذت تُعرف باسم آرام[٨٦]. وهذا ما يفسّر لنا أسباب اختفاء ذكر «جشور» وغيرها بعد ذلك التاريخ من على صفحات العهد القديم.

استمرّت الحروب الآراميّة ــ العبرانيّة سجالاً طيلة القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. وفي عهد ياهو ملك إسرائيل ٨٤١ ــ ٨١٤ ق.م. وجّه الآراميّون بقيادة حزائيل، خليفة بنهدد ـ الثاني، ضربة كبيرة لبني إسرائيل، فقد «ضربهم من شرقيّ الأردن، ضرب كلّ أرض جلعاد، من الجاديّين والرأوبيّين والمنسيّين، واستعاد الأرض من عروعير التي على وادي أرنون، إلى جلعاد وباشان»[٨٧] وهكذا خسر بنو إسرائيل جميع ممتلكاتهم في عبر الأردن[٨٨].

وأكثر من هذا، ففي عهد ابنه بنهدد الثالث «غضب الربّ على إسرائيل وأسلمه إلى يد بنهدد بن حزائيل ملك آرام، فأبادهم وجعلهم مثل التراب الذي يُداس»[٨٩]. ويتّضح لنا من هذه المرويّات التوراتيّة أن السيطرة الآراميّة لم تقتصر على أراضي آرام (سورية) فقط، بل امتدّت في الكثير من الأوقات إلى الأردن وفلسطين، وحتّى إلى أورشليم نفسها[٩٠].

وفي الربع الأوّل من القرن الثامن ق.م. كان الآشوريّون قد بدأوا بالظهور قوةً عسكريّةً قادرة على تغيير وجه المنطقة من جديد. ففي عام ٧٣٤ ق.م. جاء تجلت فلاسر ملك أشور، واستولى على القسم الأكبر من مملكة إسرائيل، وجلا شعبها إلى أشور، فيما سُمّي بجلاء الإسرائيليّين الأوّل[٩١].

وفي سنة ٧٣٢ ق.م. قام بحملةٍ على دمشق وأخذها، وكان على رأسها «رصين» ملك آرام الذي قتله تجلت فلاسر وقضى بذلك على آخر ملوك دمشق[٩٢]. وأصبح الآشوريون القوّة الدوليّة الكبرى في المنطقة لم ينافسهم في الصراع عليها إلّا فراعنة مصر.

وظهر البابليّون فيما بعد قوةً ثالثة كبرى، حيث سيتمّ على يدهم سقوط أورشليم وخراب هيكلها بعد حوالى قرنين ونصف من الزمان.

تكييف التاريخ

يتبين لنا فيما تقدّم أن مملكة «جشور» الآرامية، التي سُمِّيَت في العهد اليوناني ــ الروماني بمقاطعة جولا نيتس، وبالجَوْلان بعد دخول الغساسنة العرب إليها، قد ظلّت إبّان العهد العبري القديم محافظة على استقلالها خلال قرون عديدة.

وقد دخل العبرانيون فيما بعد في «الشتات»، ودخلت «جشور» في النسيان، وخضعت المنطقة لحكم الغساسنة العرب منذ ما قبل الفتح العربيّ بزمانٍ طويل، مفتتحين بذلك عهداً عربيًّا سيمتدّ إلى أكثر من ستّة عشر قرناً.

لقد احتلّت إسرائيل في حرب الخامس من حزيران منطقة الجَوْلان، وباشرت بعدها عمليّة إقامة المستعمرات ليُبعث اسم «جشور» من جديد ويظهر على الخرائط الحديثة، ولكن هذه المرّة مستعمرة يهوديّة صغيرة واقعة شرقي بحيرة طبريّا، لا يتعدّى عدد سكّانها العشرين(٩٣).

إنّها أمثولة غاشمة لعمليّة تكييف التاريخ فيما يخدم المصالح والأهداف. لقد مُسِخَت المملكة الآراميّة القديمة إلى عدّة بيوت من خشب، وأصبحت مدينة ــ الملجأ التوراتيّة المُستخدَمة كمنفى بعيد هي المملكة الحديثة التي تؤلّف جزءاً لا يتجزّأ من أرض إسرائيل، وإذْ بأراضيها تمتدّ من اليرموك ذي المياه العذبة إلى قمم جبل الشيخ الجميلة المغطّاة بالثلج الأبيض والتي تُغذّي تلك الينابيع الحيويّة لنهر الأردن العتيق. ●

الهوامش

(١) نشرة مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، السنة الثانية عشرة، عدد ١، كانون الثاني، ١٩٨٢، ص ٣.
رَ أيضاً: **Revue d'études Palestiniennes** No. 3 printemp 1982 Dossier: L'annexion du Golan p. 112. Discours de Begin à la Knesset p. 129.

(٢) د. كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت، كانون الأول ١٩٨٦، الطبعة الثالثة، ص ٥٧. = [صليبي: ١٩٨٦].

(٣) انظر مقالة د. أنيس فريحة: «الدراسة النقديّة للتوراة، مثال على تحرّر الفكر»، في كتابه: **دراسات في التاريخ**. دار النهار للنشر. بيروت ١٩٨٠، ص ١٧٥. = [فريحة: ١٩٨٠].

(٤) لقد استطاع د. صليبي أن يقتنع بعد دراساته «الجادّة» بحقيقةٍ مفادها أن «التوراة جاءت من جزيرة العرب» كما عَنْوَن كتابَه، وليس كما المتداول من فلسطين!!

(٥) قاعدة في علم الحساب، يجوز استعمالها للوصول إلى الحلّ الصحيح.

(٦) صليبي: ١٩٨٦. ص ٤٤ هامش رقم ٢٠.
انظر أيضاً: د. جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة بغداد، بيروت ١٩٧٦، المجلّد الثامن ص ٥٢٥، فصل: اللغات السّاميّة. = [المفصّل: ١٩٧٦].

(٧) د. فيليب حتّي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، الجزء الأوّل ص ٦٧. = [حتّي: ١٩٨٢].

(٨) انظر حتّي: ١٩٨٢، القسم الثاني ص ص ٦١ ــ ٢٢٨.
أيضاً: **المفصّل**: ١٩٧٦. المجلّد الأوّل. الفصل السادس ص ص ٢٢٢ ــ ٢٦٠، حيث يقدّم عرضاً هامّاً لمختلف النظريّات ويعلّق عليها.

(٩) فريحة: ١٩٨٠، ص ١٧٥.

(١٠) اعتُمِد في سرد النصّ التوراتي على المصادر التالية:

1 ــ **La Sainte Bible**, traduite en français sous la direction de l'ecole Biblique de Jérusalem. Paris 1956 = [B.J: 1956].

ب ــ **الكتاب المقدّس: كتب الشريعة الخمسة**، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧ = [مشرق: ١٩٨٧].
ج ــ **الكتاب المقدّس: كتب التاريخ**، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦ = [مشرق: ١٩٨٦].
واعتُمد على تحديد الأماكن الجغرافيّة التوراتيّة ومواقعها الحاليّة، بصورةٍ رئيسيّة على المراجع التالية:

أ — William Smith, L.L.D., **A Dictionary of the Bible**, Regency Reference Library, printed in the U.S.A. 1967 = [SMITH Dic].

ب — **Atlas de la Bible,** Luc A. Grollenberg, o.p., traduit et adapté du néerlandais par René Beaupère, o.p., 3 eme édition, Imp. en Belgique 1954. Elsevier = [ATLAS: 1954].

ج — نخبة من الأساتذة، هيئة التحرير د. بطرس عبد الملك، د. جون الكساندر طمسن، أ. إبراهيم مطر، **قاموس الكتاب المقدّس**، قدّم له د. فيليب حتّي. نشر مكتبة المشعل الإنجيلية = [قاموس].

(١١) **مشرق**: ١٩٨٧، هامش ٧، ص ٣٠٧ — راجع أيضاً خريطة في **B.J.: 1956, p. 1674**.

(١٢) سفر العدد، إ ص ١٣.

(١٣) عدد ١٣: ٢٧، ٢٨.

(١٤) عدد ١٣: ٢٩.

(١٥) تكوين ١٠: ٦، ١٥، ١٦. يعزو بروكلمان السبب في إقصاء الكنعانيين من الشعوب السامية إلى أسباب سياسية ودينيّة. رَ: المفصَّل: ١٩٧٦. جزء ١، ص ٢٢٤.

(١٦) ابن خلدون، **كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر**... القسم الأوّل — المجلّد الثاني — بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٧. ص ١٢ — ١٣.

(١٧) حتّي: ١٩٨٢، ص ٢٨، ١٥٧.

(١٨) حتّي: ١٩٨٢، ص ٨١، ٨٨.

(١٩) تقول التوراة إن موسى وهارون طلبا الماء لشعبهما في بريّة صين، فأوحى الله إليهما أن يأمرا الصخرة، لكنّ موسى ضربها بعصاه مرّتين، فغضب الرّبّ منهما لأنّهما «لم يؤمنا به ولم يقدّساه على عيون بني إسرائيل، فلذلك لن تُدخلهما هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطاهم إياها»، كما جاء في سفر العدد، الإصحاح العشرين. وبسبب هذا العقاب، توجّهت حركة موسى الاستيطانيّة إلى شرقيّ الأردنّ. وسيكون من نصيب خليفته يوشع بن نون أن يقود الشعب العبراني، بعد موت موسى، إلى غزو أرض الميعاد التي تفيض لبناً وعسلاً.

(٢٠) تدور هذه الأحداث في الإصحاح العشرين من سِفر العدد.

(٢١) **B.J**: 1956, v. la Carte, p. 1672.

(٢٢) **SMITH Dic.**, p. 56.

(٢٣) **SMITH Dic.**, p. 224.

(٢٤) تثنية ٢: ٣٧.،

(٢٥) قاموس ص ١١٩ — ١٢٠.

(٢٦) حتّي: ١٩٨٢، ص ٧٢.

(٢٧) عدد ٢١: ٢١، ٢٤.

(٢٨) عدد ٢١: ٢٥.

(٢٩) **SMITH Dic.**, p. 245.

(٣٠) عدد ٢١: ٣٣، ٣٥.

(٣١) **قاموس**، ص ٤٢ أيضاً **ATLAS** p. 148, v. la Carte 11.

(٣٢) **SMITH Dic.**, p. 156.

(٣٣) **SMITH Dic.**, p. 625.

(٣٤) عدد ٣٢: ١ — ٥، ١٩.

(٣٥) عدد ٣٢: ٣٣ وباشان تعني الأرض الكثيرة الثمر.

(٣٦) See Map No 9 in **SMITH Dic.**; and Map No 11, p. 59 in **ATLAS: 1954**.

(٣٧) ٣٢: ٣٩.

(٣٨) تثنية: ٣:١٣.

(٣٩) يشوع ١٢:٤.

(٤٠) تثنية ٤:٤٣، ويشوع ٢٠:٨ و ٢١.

(٤١) **The New Encyclopedia Britannica** 1978 — pr. in U.S.A. vol. IV, p. 603. = [E.B: 1978.]

(٤٢) See Map No 30 in **SMITH Dic.** = Palestine in the time of the old testament. and Map No 11, p. 59 in **ATLAS:** Cadastre de Douze Tribus. and E.B: 1978, Vol. IV, p. 603.

(٤٣) «Golân,» **ATLAS**: 1954, p. 150.

(٤٤) عيسى اسكندر المعلوف، **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف**، بعبدا، لبنان: المطبعة العثمانية ١٩٠٧، ١٩٠٨،

صفحة ١٢ = [دواني القطوف: ١٩٠٧].

(٤٥) E.B: 1978, p. 603.

(٤٦) فريحة: ١٩٨٠، ص ص ١٧٧ ــ ١٧٨. انظر ايضاً مقدّمة كتب الشريعة، **المشرق**، ص ٦٦.

(٤٧) فريحة: ١٩٨٠، ص ١٩١.

(٤٨) **قاموس**، ص ٢٦٤.

(٤٩) انظر خريطة رقم ١١ **ATLAS:** 1954 .Cadastre de Douze tribus, p. 59
ايضاً خريطة رقم ٩ **SMITH. Dic.** .The Coming of the Israelites

(٥٠) حتي: ١٩٨٢، هامش رقم ١، ص ٤٥.

(٥١) **دواني القطوف**: ١٩٠٧، ص ١٢ ــ ويتوسّـع المعلوف بعد ذلك في تحديد موقعها. فيقول إن اليهود اطلقوا اسم باشان على الأقاليم الخمسة الشمالية الواقعة في عبر الأردن وهي ايطور والجَوْلان وتراخونيت وحوران والبثنيّة. فنحن هنا إذاً بصدد وضعَيْن لملكة باشان، اوّلهما قبل الغزو العبري وثانيهما بعده. ويكون بهذه الطريقة قد فسّر التضارب في الآيات التي تتحدّث عن هذه الحدود، لكنّه أخطأ في اعتباره منطقة الجَوْلان من ضمن باشان كما سنرى لاحقاً.

(٥٢) المطران يوسف الدبس، **من تاريـخ سورية الدنيوي والديني**، سنة ١٨٩٣ ــ من دون ذكر دار نشر. الجزء الثاني، ص ١٧٠ ــ ١٧١ = الدبس: ١٨٩٣.

(٥٣) الدبس: ١٨٩٣، ج ٢، ص ٢٠٩. غير ان الدبس نفسه سيُعارض هذه النتيجة في موضـع آخر من كتابه كما سنرى لاحقاً.

(٥٤) حتّي: ١٩٨٢، ج ١، هـ ١، ص ٤٥.

(٥٥) E.B: 1978, Vol. 1, p. 852.

(٥٦) p. 52 .See Map No 11 in **ATLAS:** 1954 and No 9 in **SMITH Dic.**

(٥٧) **قاموس**، ص ٤٦.

(٥٨) **SMITH Dic.** ــ ايضاً **دواني القطوف**: ١٩٠٧، ص ص ١٣ ــ ١٤.

(٥٩) **قاموس**، ص ٧٤٢ ــ ٧٤٤. ايضاً **SMITH Dic.** p. 455.

(٦٠) **قاموس**، ص ٤٧٧. ايضاً **SMITH Dic.** p. 581.

(٦١) **قاموس**، ص ٤٢، ايضاً **ATLAS:** 1954, p. 148.

(٦٢) **SMITH Dic.** p. 156.

(٦٣) **SMITH Dic.**, p. 77. ايضاً **قاموس**، ص ٤٦.

(٦٤) انظر: **المشرق**: ١٩٨٦، ص ٥٨١. ايضاً: **B.J:** 1956, p. 313.
ايضاً: «Geshur,» **ATLAS:** 1954, p. 150.
ايضاً: «Geshur,» **Webster's Third new International Dic.** U.S.A. 1976, V. 1, p. 952.
ايضاً: **SMITH Dic.**, p. 214 article Geshur.
ايضاً: **قاموس**، ص ٤٣.

(٦٥) **قاموس**، ص ٢٦١. ومن المرجّـح أن العبران هم أطلقوا هذه التسمية لدى كتابتهم النصوص التوراتية بعد قرون عديدة من تاريـخ الغزو.

(٦٦) ٢ صموئيل ١٣: ٣٧.

(٦٧) الدبس: ١٨٩٣، ج ٢، ص ٣١١. ويعيد ذكر هذا التحديد في ص ٣٢٥، ويكون بذلك قد عارض ما حدّده سابقاً كما رأينا اعلاه.

(٦٨) See **Map** No 9 in **SMITH Dic.**, aussi: La Carte No 15: Géographie des livres de Samuel, p. 66, in ATLAS: 1954.

(٦٩) حتّي: ١٩٨٢، ص ١٧٦ ــ ١٧٧.

(٧٠) **E.B:** 1978, V. 12, p. 914.

(٧١) الدكتور علي أبو عسّاف، **آثار الممالك القديمة في سورية**، دمشق: منشورات وزارة الثقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، ١٩٨٨، ص ٤٥٠ = [ابو عسّاف: ١٩٨٨].

(٧٢) د. محمد وحيد خياطة، «سورية مهد الحضارات»، مجلة **«الفكر العربي»** عدد ٥٢، (آب ــ ١٩٨٨) ص ٤٠، الاقتباس ص ٤٤.

(٧٣) ابو عسّاف: ١٩٨٨، ص ٤٩١.

(٧٤) د. أسد رستم، «آرام»، **دائرة المعارف**، بإدارة فؤاد افرام البستاني، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٦. الاقتباس الوارد، ص ١٥٨ = [الدائرة: ١٩٥٦].
راجـع ايضاً: ابو عسّاف: ١٩٨٨ من ص ٤٥١ ــ ٤٩٧، حيث يعدّد الممالك الآراميّة والآلهة التي عبدوها، فضلا عن آثارهم المختلفة.

(٧٥) حتّي: ١٩٨٢، ص ١٧٧. ويشير إلى ذلك أيضاً د. أنيس فريحة في الدائرة: ١٩٥٦ ص ١٥٩.
راجع أيضاً فريحة: ١٩٨٠، ص ٢٢٣، حيث يقول إن هوميروس يستعمل لفظة آرام في حديثه عن سوريا. ويعتبر د. فريحة أن اسم آرام كان يُطلق على جميع البلدان الواقعة شمالي فلسطين وشرقيها وليس فقط على مملكة دمشق فقط، ص ٢٢٢.

(٧٦) فريحة: ١٩٨٠، ص ٢٢٧. أيضاً الدائرة: ١٩٥٦، ص ١٥٩.

(٧٧) الدائرة: ١٩٥٦، ص ١٥٦. راجع أيضاً لتحديد أصول هذه القرابة الغامضة بين الشعبين العهد القديم: سفر التكوين ٢٤:٤، ٢٨:١ ــ ٩، ٢٩:٢١ ــ ٣٠، أيضاً سفر التثنية ٢٦:٥.

(٧٨) حتّي: ١٩٨٢، ص ٢٠٣.

(٧٩) راجع هامش رقم ٦٤ من هذه الدراسة.

(٨٠) الملوك الأول ١٢:٢٠.

(٨١) الملوك الأول ١٤:٣٠.

(٨٢) الملوك الأول ١٥:١٦.

(٨٣) الملوك الأول ١٥:١٩.

(٨٤) الدائرة: ١٩٥٦، ص ١٥٧.

(٨٥) الملوك الأول ٢٠:١، أيضاً الدائرة: ١٩٥٦، ص ١٥٧.

(٨٦) انظر خريطة سورية كبلاد آراميّة في حتّي: ١٩٨٢، ج ١، ص ١٧٨.

(٨٧) الملوك الثاني ١٠:٣٣.

(٨٨) المشرق: ١٩٨٦، ص ٦٩٦، هـ ٧. أيضاً **B.J:** 1956, p. 381, N.a.

(٨٩) الملوك الثاني ١٣:٣ ــ ٧.

(٩٠) الملوك الثاني ١٢:١٨ ــ ١٩.

(٩١) الملوك الثاني ١٥:٢٩. أيضاً المشرق: ١٩٨٦، ص ٧٠٥، هـ ٦. أيضاً: **B.J:** 1956, p. 386, N.a.

(٩٢) الملوك الثاني ١٦:٥ ــ ٩.

(٩٣) — **Journal of palestine studies,** No 29, (Autumn 1978), p. 103. The Settlement, No 19. and p. 110, No 19; aussi: **Les Arabes sous l'occupation israélienne, 1977,** Beyrouth: 1979, p. 122, la colonie No 18, et p. 112, No 18.
انظر عنها أيضاً: **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيليّة في الاراضي المحتلّة، ١٩٦٧ ــ ١٩٨٠**. إعداد وتحقيق وليد الجعفري، مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٢: مستعمرة غيشور، Geshur.



إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

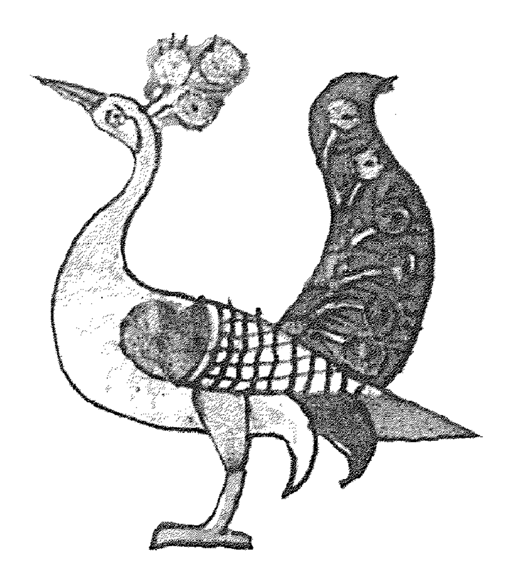
«أبو القاسم الشابي»

● روى جنيتوس: أن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء ضاعت منه جميع إبله، فجاء إلى الضيف عبد زنجي وسأله أن يشفع له عند مولاه في ذنبه، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده إليه، أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه. فقال له صاحب الدار: إن هذا العبد الخبيث ضيع عليّ مالي، ورده إليّ في أسوأ الحال، وقد منحه الله صوتاً جميلاً فاقمته حادياً لأبلي، فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسير ثلاثة أيام. ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعها ساعة وضعت عنها أحمالها، لفرط ما نالها من الإعياء، وقد وجب لك حق الضيف، فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من العقاب.

مقتبسة عن كتاب «داعي السماء» للعقاد

● إني أحث كتابنا وعلماءنا على الإكثار من إثارة دقائق تاريخنا والكشف عن كنوزه، حتى يكون لنا منها أمثلة مضروبة للحياة العالية، تحتذيها الأجيال الحاضرة وتنسج على منوالها.

«عمر طوسون»



من عباقرة العلوم التطبيقية في الحضارة العربية

المهندس الدكتور محمود فيصل الرفاعي
أستاذ في كلية الهندسة المدنية
رئيس قسم تاريخ العلوم التطبيقية ـ معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب

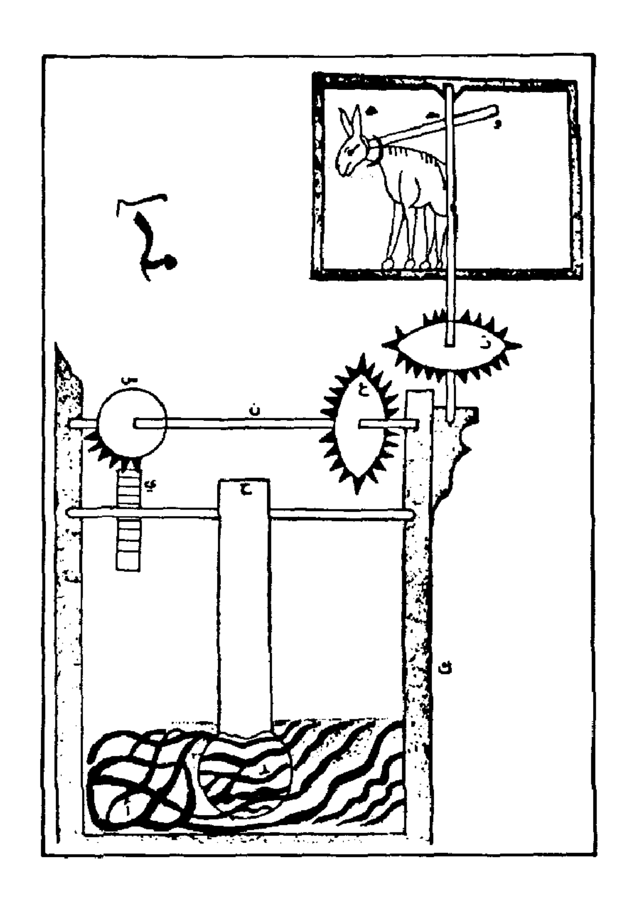
حدث تقدم علمي واسع حيث انتشر الإسلام. بدأت النهضة العلمية العربية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) فحققت ازدهاراً باهراً استمر حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وهناك من يتوسع في ذلك فيمدده حتى القرن التاسع الهجري.

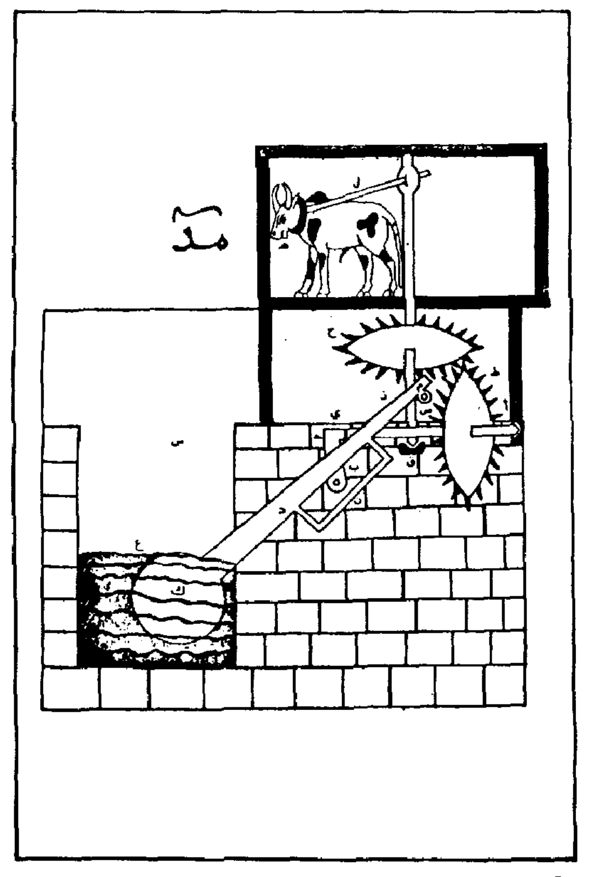
تمت هذه المعجزة من التفوق العلمي العربي في ثلاث مراحل: المرحلة الأولى نفذ فيها العرب الأمر القرآني الأول «إقرأ»[1] فانْكَبُوا على قراءة المراجع وشملت هذه المرحلة حركة نقل وترجمة وتعريب عن اليونانية والهندية واللاتينية والسريانية ثم دخلت الثانية وهي الإبداع العربي والإنتاج الأصيل في مجال العلوم الأساسية والطبية، تلتها المرحلة الثالثة وهي الاختراع والبناء والصناعة والأعمال المبتكرة في مجال الأعمال الهندسية.

نفذ العرب في المرحلتين الثانية والثالثة الأمر القرآني الثاني ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[٢] والحديث الشريف (قيدوا العلم بالكتابة) فدونوا أفكارهم وتجاربهم ونظرياتهم ونتائج أبحاثهم .ووصفوا أعمالهم بأدق التفاصيل وهذا ما يفسر وجود الثروة الضخمة من المصنفات القيمة التي خلّفها علماء السلف على الرغم مما فقد وأحرق وأتلف بنتيجة الحروب فقد ابتليت الأمة في أواخر القرن السابع الهجري بإعصارين مدمرين هما الزحف الصليبي من الغرب والهجوم المغولي من الشرق مما اضطرها أن تُسَخِّرَ على مدى قرنين معظم طاقاتها لصد الغزوات التي كانت تستهدف القضاء على أصل وجودها، وما أن سعدت بقطع دابر الغزاة حتى أُسلمت إلى سُباتٍ عميق لعدة قرون على حين كان الغرب يفتح عينيه وينهض متقدماً في طريق حضاري جديد معتمداً على عمله وعلى ما اكتسبه من الحضارة العربية الإسلامية.

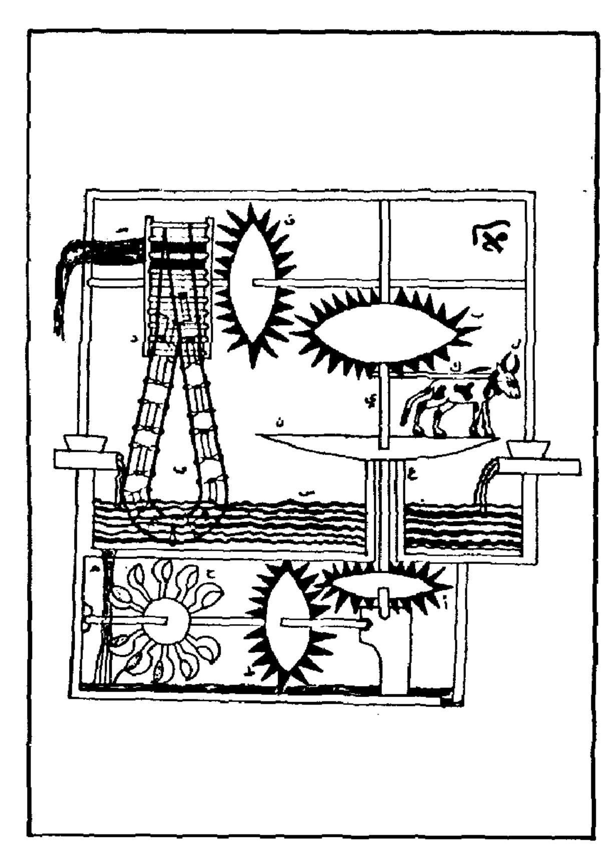
هناك أربعة عوامل ساعدت العلماء العرب المسلمين على تحقيق إنجازاتهم العلمية المتفوقة: العامل الأول حرية الرأي العلمي فلم يتعرض عالم لمحنة أو اضطهاد بسبب رأيه العلمي. يقول الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي في كتابه (حضارة العرب) «إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين» ولا يدخل في هذا السياق ما روي عن الاختلافات الفكرية والعقائدية.

والعامل الثاني إكرام الإسلام للعلم والعلماء واهتمامه بما يعتبره أصل الحضارة وقوتها الدافعة فقد جاء في سورة العنكبوت ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[٣] وفي سورة المجادلة ﴿يَرْفَعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[٤]، وقد ظهر هذا العامل واضحاً في رعاية الحكام والولاة للعلم والعلماء وإنفاقهم بسخاء في هذا المجال وتشير بعض الدلائل إلى أن أكاديمية العلوم التي أسسها الخليفة العباسي المأمون في القرن الثاني الهجري في بغداد وهي (بيت الحكمة) كانت تملك مخصصات للبحث العلمي جعلت المشرفين عليها يمنحون كل عالم





□ آلات مائية (الحيل) الجزري.

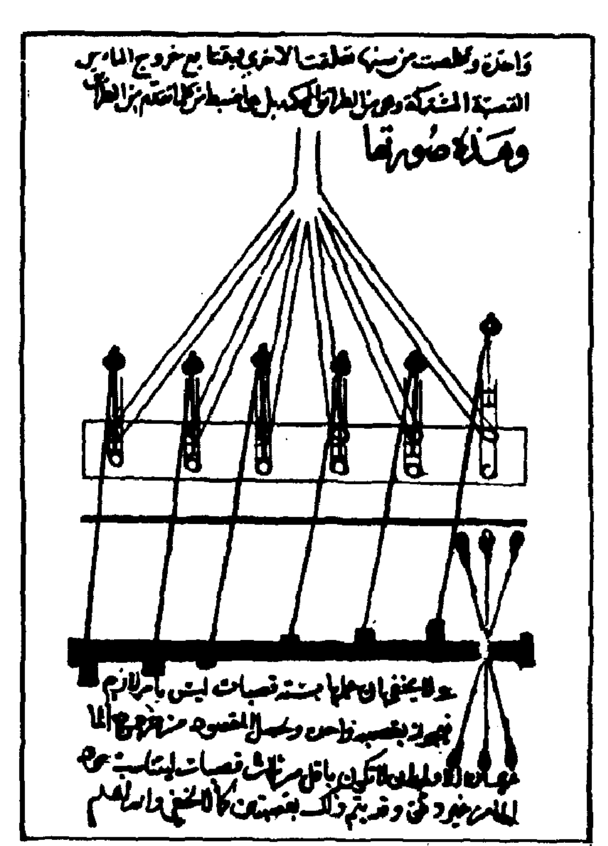


□ آلة مائية (الحيل) الجزري.

يترجم كتابا علميا عن لغة أجنبية وزن الكتاب ذهباً كمكافأة له. والعامل الثالث الاستعداد الذهني مع الصبر والمثابرة حتى أن أعمال العالم الواحد منهم تعد بالعشرات وكان العالم يفخر بالدور الذي يؤديه لأنه يرضي الله عز وجل أولاً ثم يساهم في توسيع المعرفة الشاملة إضافة إلى زهد العالم في الترف والسلطان. والعامل الرابع هو الانتشار الذي حصل في العالم الإسلامي لمصنفات العلماء العربية والتداول على الرغم من صعوبات الاتصال.

إن هدف البحث في التراث العلمي العربي يجب أن يتركز على بعث الأمل في النفوس مع اليقين بأن القوة الدافعة التي قادت السلف إلى أعلى الدرجات لا تزال حية وهي تنبع من جذور وروح الأمة ولكنها كامنة وهي بحاجة إلى من يحيلها إلى قدرة حركية وبذلك يقترن الماضي بالحاضر كما قال الشاعر عبد الغني حسن:

ما قيمة الماضي الدفين ومجده
إن لم يقس بالحاضر المتوقد
هذا زمان لا تقام كرامة
فيه لماضٍ غائب لم يشهد

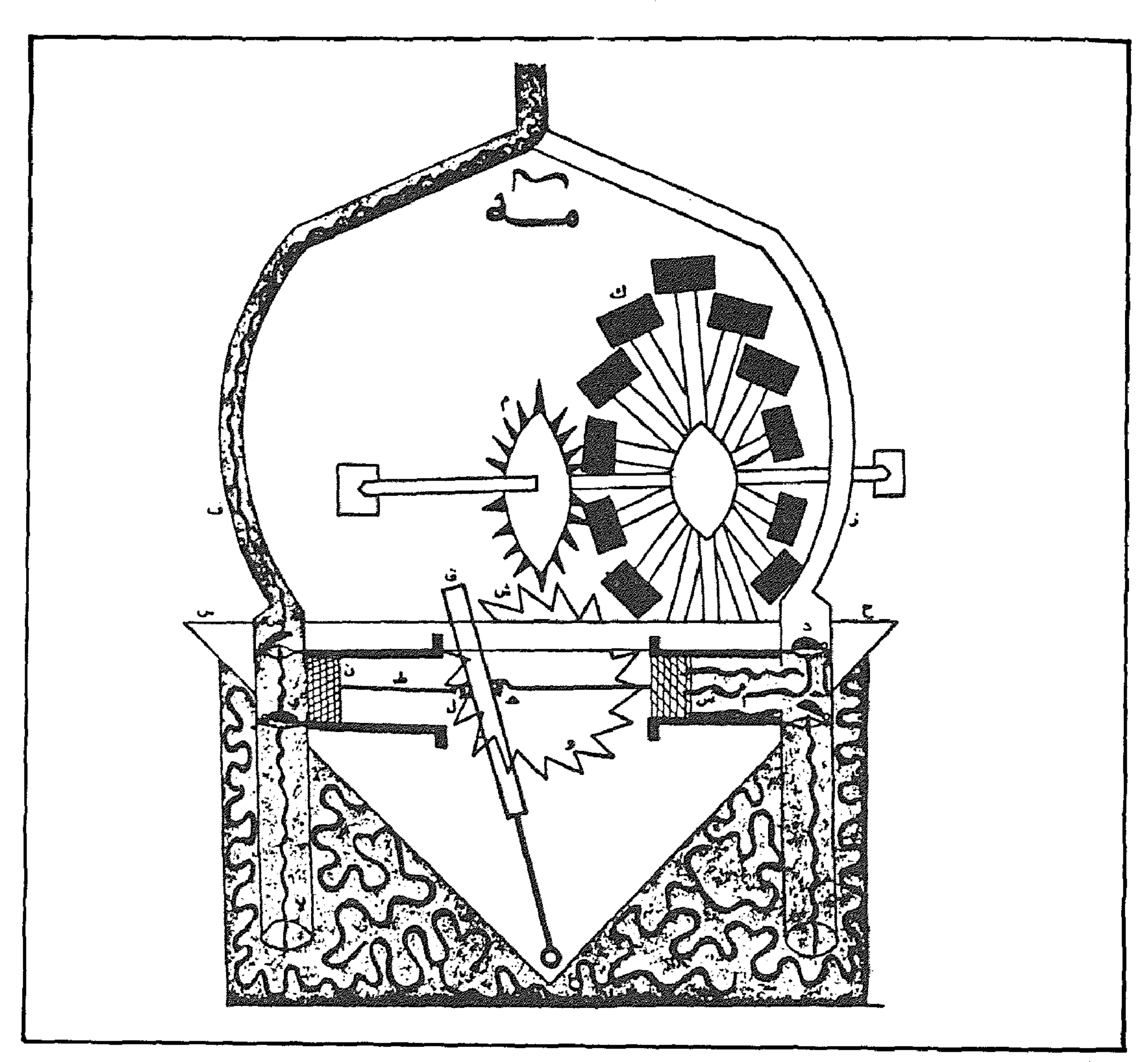


□ المسخة ذات الست اسطوانات، مخطوطة تقي الدين الدمشقي.

أو كما قال محمد المبارك في كتابه (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) «وأصبح للعرب مصدران يستمدون منهما القوة أحدهما خارجي يجدونه في نماذج الأمم الأوروبية وثانيهما داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم وكان هذا المصدر يتزايد قوة ويتسع أفقاً». سنعرض أعمال أربعة علماء من المهندسين العرب المسلمين الذين لمعت إنجازاتهم في العلوم التطبيقية فأضاءت الحضارة. هؤلاء هم بنو موسى بن شاكر (٨٥٠م)، الخازني (١١١٥م)، الجزري (١٢٠٠م) وتقي الدين الدمشقي (١٥٥٠م).

بنو موسى بن شاكر

ثلاثة أخوة لمعوا في مجال العلم التطبيقي عاشوا أثناء العصر العباسي في القرن التاسع الميلادي. بدأوا حياتهم العلمية بأن درسوا في (بيت الحكمة) ببغداد وهناك نمت مواهبهم العلمية. وقد تألقوا في أبحاثهم الرياضية والفلكية وعلوم الأنواء والهندسة والعلوم التطبيقية. وقد تحملوا على حسابهم الخاص نفقات ترجمة كتب يونانية إلى اللغة العربية كذلك كانوا ينفقون



□ المضخة ذات المكبسين.

مبالـغ طائلة لإرسال بعثات إلى بيزنطة لشراء كتب علمية ولدعوة علماء للعمل في بغداد ولإجراء البحوث فيها.

يمكن سرد بعض إنجازات بني موسى بن شاكر في مجال الأعمال الهندسية بإيجاز:

ـ تصميم قناة الجعفري والإشـراف على تنفيذها وتصميم قنـاة عمود بن المنجم وكلتا القناتين قرب البصرة.

ـ حل بعض المسائل الهندسية التي لم تكن قـد حلت حتى وقتهم في الهندسـة الاقليديـة كتنصيف الزوايـا، وإنشاء القطـع النـاقص (الأهليلـج) باستعمال طريقة الخيط والمحارق.

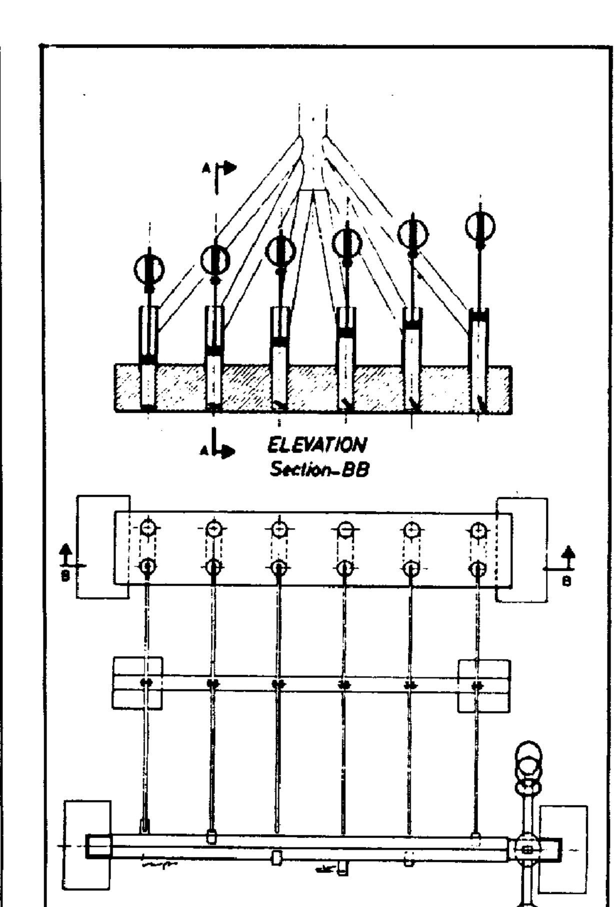
ـ أبحاث في حركة الكواكب السيارة.

ـ قياس محيط الأرض بتعيين طول القوس الموافق لدرجة واحدة.

ـ كتـابة عشـرين مصنفاً علميـاً قيماً في الهندسة والفلك والرياضيات.

ـ تصميم أجهزة وآلات وإنشاؤها وتشغيلها، وقـد وصفت هذه الآلات في كتـابهم الشهـير (الحيل). هذا الكتاب يمكن أن يعتبر الأول من نوعه في مجال التكنولوجيا يكتبه عالم عاش في عصر النهضة الإسلاميـة. يضم هذا الكتـاب وصفاً لآلات وأجهزة تـدل على الذهن المتـوقد والمهارة الصناعية والخبرة العلمية التطبيقية.

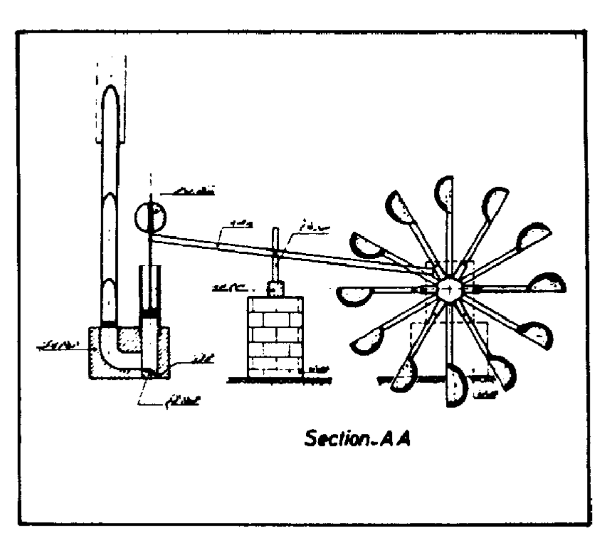
من المحتمل أن بني موسى بن شـاكر قـد استعانوا بعدد من المراجـع في كتابهم، ككتاب هيـرو (الميكانيـك ـ القـرن الأول الميـلادي) والمكتوب باليونانية وكتاب فيلو البيزنطي (القرن



المضخة المكبسية ذات الأسطوانات الستة لتقي الدين.

الثالث قبل الميلاد) وبأبحاث أرخميدس لكن الآلات التي وصفت في كتابهم كانت فريدة من نوعها بالمقارنة مع ما كتبه المهندسون من قبلهم.

كانت المبادىء العلمية التي استعملوها في تصميم الآلات تعتمد على علوم توازن السوائل (الهيدروستاتيك) وعلى علم جريان الهواء (الايروديناميك) وقد استعملوا نظام الصمامات الآلية ذات التشغيل المتباطىء (Automatic valves delayed action system) كما استعملوا التحكم الآلي والتشغيل عن بعد، وهناك نموذجان لتصميمين ظهر فيهما ما يشبه الجذع المعكوف[٥]. بدأ الاهتمام في الغرب بكتاب الحيل لبني موسى بن شاكر منذ نهاية القرن التاسع عشر وقد كتب فيدمان وهاوسر باللغة الألمانية ترجمات عن هذا الكتاب، وقام هيل بترجمة

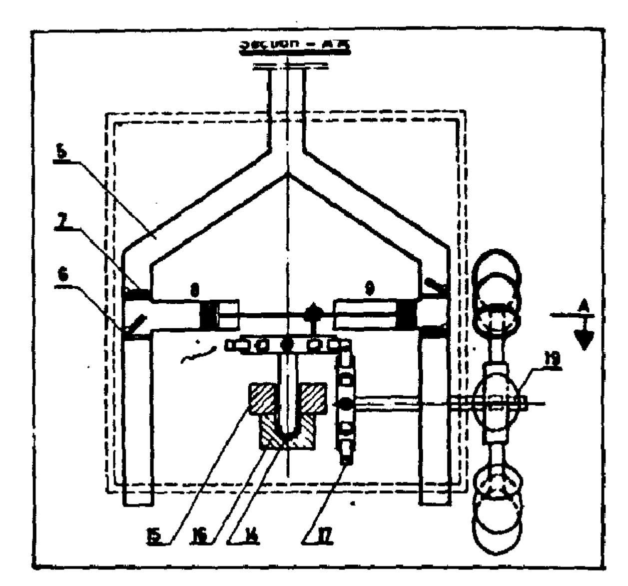


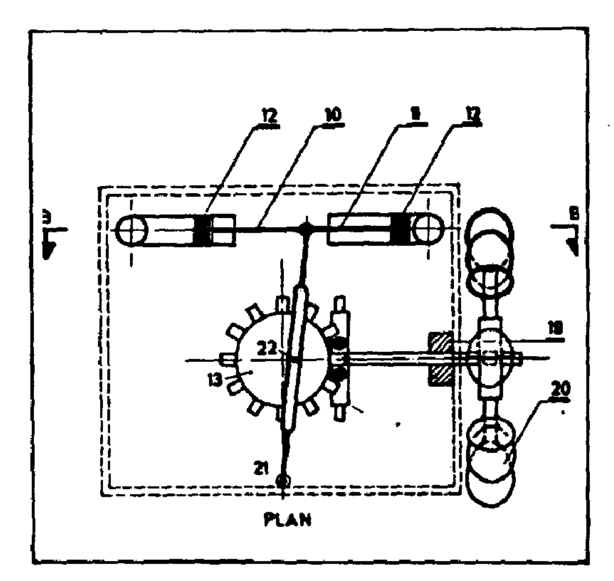
□ التمثيل الحديث للمضخة ذات المكبسين.

الكتاب كاملاً إلى اللغة الانجليزية.

الخازني

هو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وتلقى علومه وثقافته الفلسفية في مرو وهي اليوم في إيران. وهو عالم فيزيائي ومهندس تطبيقي. وقد أجرى بحوثه وتجاربه في الميكانيك وعلم سكون السوائل والفيزياء وسجل نتائج أعماله في أكثر الكتب تقدماً وعمقاً بالنسبة لما كان يوجد في العصور الوسطى وهو كتاب (ميزان الحكمة). قاس الخازني الوزن النوعي[٦] لعدة مواد وقد توصل إلى قيم من قياساته قريبة جداً من القيم التي نعرفها اليوم. تبين بدقة أن قياسات الوزن النوعي للذهب والزئبق التي أجراها الخازني توافق قياسات الأوزان النوعية التي نعرفها اليوم. وقد استعمل الخازني مقارنة الوزن النوعي للمادة في الهواء والماء لاستنتاج القيمة الفعلية. وقد أشار في كتاباته أيضاً إلى قوة الثقالة[٧] على أنها القوة الكونية الموجهة نحو مركز الكون (الأرض) وكان هذا قبل ثلاثمائة عام من توصل إسحاق نيوتن إلى معرفة قوة الجاذبية[٨] كما أشار الخازني في كتاباته إلى الخاصة الشعرية[٩] واخترع بعض الموازين للقياسات الدقيقة وأجهزة لضبط الأفقية لمستوى. ويبدو من كتاباته أنه تعرف إلى تأثير بعض خواص الجريان كاللزوجة[١٠] والسرعة والتدفق والضاغط.





□ المضخة ذات الأسطوانتين المتقابلتين.

وقد تميزت أبحاث الخازني بالدقة وباستعمال التجارب وبوضوح الحلول وبسهولتها العملية التنفيذية.

الجزري

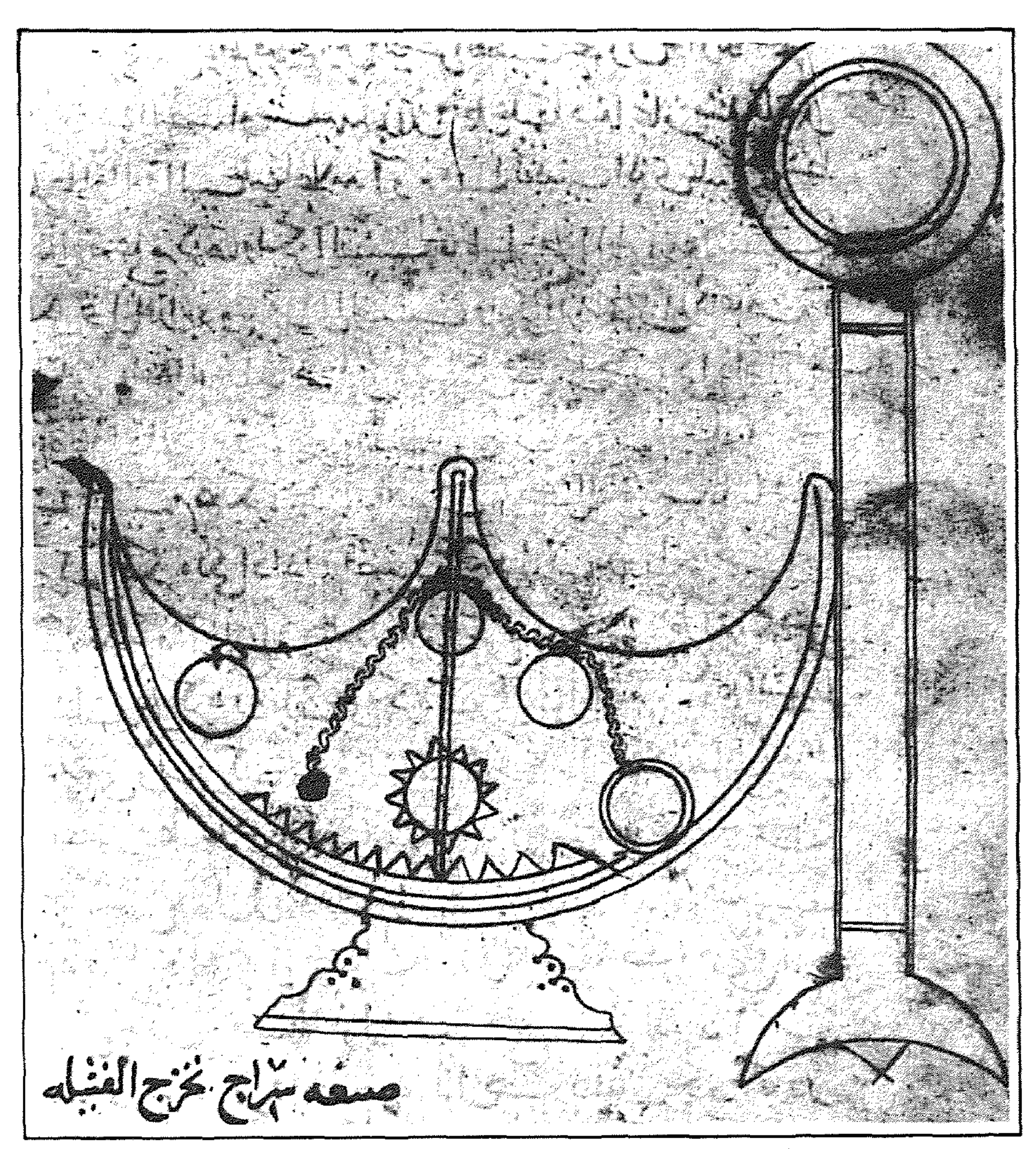
هو بديع الزمان الجزري عاش وعمل في ديار بكر (الأناضول الشرقي في تركيا اليوم) بين القرنين السادس والسابع الهجري (الثاني عشر والثالث عشر الميلادي). كان الجزري عالماً وممارساً للمهنة التطبيقية وقد أصبح كبير مهندسين وتبوأ مركزاً عالياً بما كان يملكه من معرفة علمية عميقة وبما كان عليه من مهارة عملية صناعية. صنع الجزري ووصف آلات على جانب كبير من الإبداع والدقة وقد أشار في كتاباته إلى أهمية إجراء التجارب وإلى الملاحظة الدقيقة للظواهر والتي تُكوِّن أساس الاستنتاجات العلمية ولم يكن يقبل أي نظرية إذا لم تثبتها التجربة. كتب الجزري كتاباً يمكن اعتباره من أمهات الكتب في العلوم التطبيقية هو (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل)، وقد كتب عنه جورج سارتون وهو أحد أعلام تاريخ التكنولوجيا في القرن العشرين (هذا الكتاب هو أكثر الكتب من نوعه وضوحاً ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من إنجازات المسلمين) يضم الكتاب عدة أقسام أطولها قسم الساعات المائية وقسم آخر يعالج موضوع آلات رفع الماء وقسم يبحث في آلات مفيدة كالأبواب والأقفال. تبين الأشكال آلات لرفع الماء كما وردت في كتاب الجزري والقوة المحركة فيها الماء الجاري أو الحيوان. وتضم هذه الآلات عناصر كالجذع المعكوف والمسننات الأفقية والشاقولية والصمامات وقد رسمت نفس الرسوم التي رسمها الجزري من قبل الحسن اليوم بالطريقة الحديثة التي نستعملها في الرسم الهندسي.

إن الفرق بين المضخات المكبسية الحديثة الموصولة على التوازي(١١) والمبينة في الأشكال والمضخات التي وصفها الجزري هو في مصدر القوة المحركة.

كما تبين الصور بعض الآلات المائية التي رسمها الجزري في كتابه وهي ذات تصاميم مختلفة لتناسب العلو الذي يجب رفع الماء إليه والتدفقات المطلوبة لتلبية الحاجة.

تقي الدين

ولد في دمشق عام ١٥٢٥م وانتقل إلى مصر ثم استقر في استنبول وهناك تلقى علومه، وقد صمم عدة أجهزة فلكية وعمل في مرصد استنبول. اخترع عدة أجهزة ميكانيكية وتمثل أعماله استمراراً لأعمال سابقيه من العلماء العرب المسلمين. وقد كتب تقي الدين عدة كتب أهمها (الطرق السنية في الآلات الروحانية) وصف فيه



□ رسم بياني لسراج من السرج المتبرقشة تلقائياً. من (كتاب الحيل) لأحمد بن موسى.

الآلات والأجهـزة التاليـة: السـاعـات الآلية، الساعات المائية والرملية، الروافـع بالبكـرات والمسننات، آلات رفـع الماء، النافورة المائية وآلية الدوران باستعمال مبدأ العنفات البخارية التي نعرفها اليـوم[١٢] وقد استعمـل محوراً عليـه نتوءات موزعة على محيطه بشكل منتظم لضمان الحركة المتواصلة للمكابس تبين الأشكال المضخة كما ظهرت في مخطوطة تقي الدين وقد رسمها الحسن بطريقة الرسم الهندسي الحديثة، ويعتقد الحسن أن هناك تشابهاً بين مضخة الأسطوانات الست كما وصفها تقي الدين وبين محـركات الأسطوانات الست المستعملة في السيارات التي تعتمد على محركات الاحتراق الداخلي اليوم.

الخلاصة والنتيجة

تبين أعمال بني موسى بن شاكر والخازني والجزري وتقي الدين أمثلة عملية على تأصل أسس العلوم التطبيقية لدى العـرب المسلمين خلال سبعة قرون. لقد أضاف العرب المسلمون من عبقريتهم واختراعاتهم العديـد من الآلات والأجهزة الميكانيكية الفريدة من نوعهـا والتي تتميز بالأصالة والإبداع وقد صنعت هذه الآلات والأجهزة وركبت وشغلت في مواقـع عديدة من أرجـاء العالم الإسـلامي. وصفت بعض هذه الأجهزة والآلات في العديد من الكتب التراثية للرحلات والأدب وعلوم البلدان والتاريـخ. هذا

الوصف ضم دواليب الهواء والنواعير والدواليب المائية والغرافات ومكابس قصب السكر وعصر الزيت والساعات الميكانيكية والمائية والرملية، لقد ساهم المهندسون العرب بأعمالهم العلمية التطبيقية في ترسيخ أسس الحضارة، وقد اتقنوا العلوم الأساسية ومهروا في التطبيقات العملية وكان معظمهم يلجأ إلى التجريب وإلى صناعة الأجهزة باليد. وقد تبوأ قسم منهم مناصب عالية بفضل علمهم ومهارتهم التطبيقية.

لقد كان العالم الإسلامي بين القرنين التاسع الميلادي والخامس عشر الميلادي أكثر تقدماً من أوروبا وقد انتقلت العلوم التطبيقية منذ بداية القرن الرابع عشر نحو الغرب من الشرق الأوسط. لا يمكن تقدير التأثير المباشر لأعمال المهندسين العرب المسلمين على أوروبا بشكل دقيق إلا أنه يعتقد بأن ذلك مهد الطريق نحو التقدم الذي سبق عصر النهضة الصناعية بل إن هيل يرى بأن تأثير اختراعات الجزري يمكن أن يلمسه أي متعمق في أعمال الهندسة الميكانيكية المعاصرة. ●

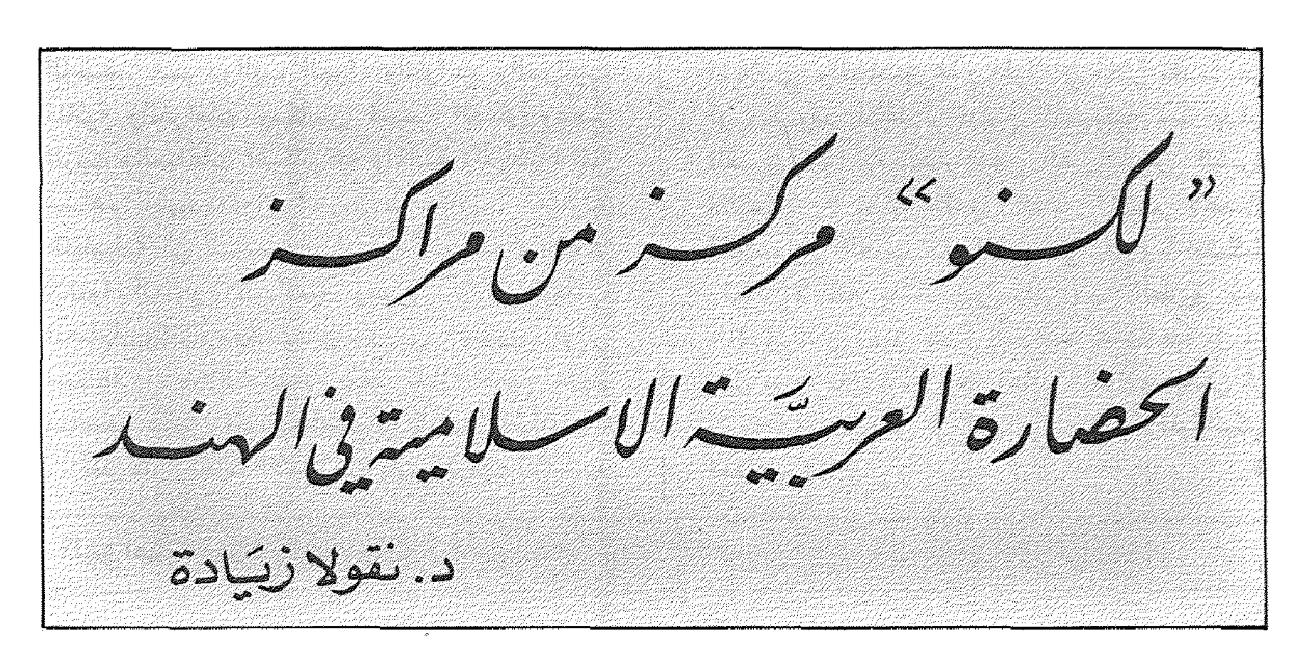
الهوامش

(١) سورة العلق الكلمة الأولى من الآية ١.
(٢) سورة العلق الآيات ٣، ٤، ٥.
(٣) الآية ٤٣.
(٤) الآية ١١.
(٥) crankshaft محور يحول الحركة الترددية لمكابس الأسطوانات إلى حركة دورانية وهو يستعمل في السيارات.
(٦) الوزن النوعي هو وزن وحدة الحجم للمادة فمثلاً الماء وزنه النوعي ١ كيلو غرام / لتر واحد.
(٧) الثقالة هي قوة جذب الأرض متأثرة بدوران الأرض مما يعطي قوة تنحرف قليلاً عن الشاقول.
(٨) الجاذبية هي القوة التي تجذب الأرض بها الأجسام وهي قوة شاقولية.
(٩) الخاصة الشعرية هي خاصة صعود السوائل الموجودة في أنابيب رفيعة جداً وهي خاصة تعاكس فعل الجاذبية.
(١٠) اللزوجة خاصة مقاومة السوائل والموائع للتغيير.
(١١) الوصل على التوازي طريقة لربط المضخات مع بعضها بحيث تعطي هذه المضخات من أجل نفس الارتفاع قيمة تدفق تساوي إلى مجموع التدفق الذي تعطيه كل مضخة.
(١٢) العنفات البخارية آلات تستعمل بصورة خاصة في توليد الكهرباء تستمد القدرة الدورانية من اندفاع بخار ماء ذي حرارة عالية يصدر عن فوهة ليدفع دولاباً ركبت عليه أكواب أو دلاء فيدور هذا الدولاب مدوراً المولد الكهربائي.

المراجع

١ ــ محمود فيصل الرفاعي «إسهام العرب في تطور العلوم التطبيقية» باللغة الانجليزية الندوة الرابعة للأجهزة العلمية (الاتحاد الدولي لتاريخ العلوم وفلسفتها) امستردام ٢٣ ــ ٢٦ أكتوبر ١٩٨٤.
٢ ــ محمود فيصل الرفاعي (عبقرية الحضارة العربية) حديث في محطة الإذاعة البريطانية BBC اذيع في ١٩٨٦/١٢/٢٢ و١٩٨٦/١٢/٢٣ ثم كرر في ٨٧/٢/١٦ و٨٧/٢/١٧ قدمته السيدة سهام الكرمي.
٣ ــ أحمد يوسف الحسن تحقيق كتاب (الحيل) لبني موسى بن شاكر، نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨١.
٤ ــ أحمد يوسف الحسن «تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية» نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨١.
٥ ــ دونالد هيل «الساعات المائية العربية» باللغة الانجليزية نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨١.
٦ ــ دونالد هيل «ترجمة كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» للجزري نشر دور درشت ــ ديدل ١٩٧٩.
٧ ــ جورج سارتون «مقدمة في تاريخ العلم» ١٩٢٧ و١٩٤٧ بالتيمور ولندن.





□ جامع عسّاف الدّولا، لوحة مائية تعود لحوالي ١٨٠٠م.

١ ـــ كتاب عن مدينة لكنو



ليس الكتاب الذي وقع بين يدي مؤخراً، والذي يتحدث عن مدينة لكنو الهندية، حديثاً. فهو كتاب وضعه مؤلفه حكيم عبد الحليم شرر (١٨٦٠ ـــ ١٩٢٦) قبل نحو سبعين سنة. كتبه مقالات بالاردية، نشرت أصلاً في الحصف الأدبية التي كانت تصدر في لكنو (وفي غيرها)، على مدى سنوات طويلة، إذ كان المؤلف ينقطع عن الكتابة بسبب انشغاله أو تغيبه عن لكنو. وقد جمعت المقالات ونشرت بعد وفاة كاتبها، ويبدو أنها نشرت في طبعات متعددة. وأخيراً تولى اثنان ترجمتها إلى الانكليزية والتعليق عليها بحواش غنية مفيدة. وصدرت الطبعة الانكليزية سنة ١٩٧٥.

أما المؤلف فهو مولانا (حكيم) عبد الحليم شرر، وقد جاءه لقب (شرر) من الاسم المستعار الذي استعمله لما بدأ الكتابة في الصحف المختلفة. وقد تعلّم عبد الحليم في البيت أولاً، وكانت مادة الدراسة المبكرة القرآن الكريم واللغتين العربية والفارسية. ثم أخذ نفسه، استجابة لرغبة أبيه، بدراسة الطب (العربي) اليوناني (ومن هنا جاءته صفة حكيم)، لكنه لم يستمر في هذه الدراسة بل وجّه همه إلى العناية بالموضوعات الإسلامية ـــ تفسيراً وحديثاً وفقهاً وما إلى ذلك. وقد تولى عبد الحليم مناصب متعددة بعضها في حيدر آباد الدكن، وقد حملته وظيفته هناك إلى انكلترا حيث قضى خمسة عشر شهراً (١٨٩٥ ـــ ١٨٩٦)، أفاد منها كثيراً في اطلاعه المباشر على الحياة الأوروبية وتحسين لغته الانكليزية. لكن القسم الأكبر من حياة عبد الحليم قضاه الرجل يعمل حراً في حقل الصحافة، والأدبية منها خاصة، والاهتمام بالمجتمع ومشكلاته.

وضع عبد الحليم عدداً كبيراً من الكتب في الأدب والاجتماع والشؤون الدينية من حيث ارتباطها بالمجتمع؛ كما صنف عدداً لا يستهان به من القصص؛ وله مجموعات شعرية متنوعة.

والكتاب الذي وقع بين يدي مؤخراً، وأردت أن أشرك قراء «تاريخ العرب والعالم» في بعض ما عرفته منه عن لكنو، أراد واضعه منه أن يصور لقرائه الدور الذي قامت به لكنو في عالم الفكر والأدب وخاصة باللغة الأردية؛ لكنه توسع في ذلك فوصف الحياة اللكنوية من جميع نواحيها ـــ الموسيقى والشعر العامي والحفلات والأبنية وأصول المجتمع الأدبية ومواكب الزواج ومضغ أوراق البتل والثياب ومناسباتها وقتال الطيور وتربية الببغاوات. ففي الواقع لم يترك عبد الحليم شيئاً لم يتحدث عنه.

وتحضير الطبعة الانكليزية للنشر ـــ ترجمة وتعليقاً وتقديماً ـــ كان من عمل اثنين هما ا. س. هاركورت وفاخر حسين. وقد كان الأول ضابطاً في الجيش البريطاني في الهند، وعاش سنوات طويلة في لكنو. وبعد مغادرته الهند التحق بجامعة اكسفورد مدرّساً للغتين الفارسية والأردية. وقد توفي قبل الفراغ من إعداد الهوامش، فوقع هذا العمل بالذات على عاتق فاخر حسين. وهو لكنوي ولادة وتنشئة، ومتحدر من أسرة لها في الحياة الأدبية مشاركة كبيرة. وقد تخرج في جامعتي لندن والسوربون. وقد شغل منصباً تعليمياً في كلية الملكة ماري (جامعة لندن). وله مؤلفات كثيرة بالانكليزية والفرنسية والأردية.

ولكنو، التي يتناول هذا الكتاب شؤونها المختلفة واحدة من مدن الهند الكبيرة، التي تقع في الجهة الشمالية الشرقية من البلاد، في ولاية أتار برادش، وعلى نحو ٦٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من دلهي. وتاريخ لكنو المبكر غير معروف، وقد لا يكون إلى معرفته سبيل إلا إذا تم النبش عن آثار المكان، وهو أمر صعب دوماً إذا كان المكان مأهولاً بالسكان مثل لكنو. لكن تاريخ المدينة الحديث، وازدحامها بالسكان، وإقبال الناس المتعلمين في الانتقال إليها يعود إلى أيام الامبراطور أكبر (١٥٥٦ ـــ ١٦٠٥) وكذلك اسمها لكنو الذي لم يعثر عليه قبل هذه الفترة.

و «أكبر» هو من أباطرة المغل الذين جاؤوا من أواسط آسية وأنشأوا لأنفسهم دولة إسلامية في الهند استمرت من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٨٥٦، ولو أن الحضارة التي أقاموا بنيانها في تلك البلاد بدت عليها إمارات التأخر في أيام



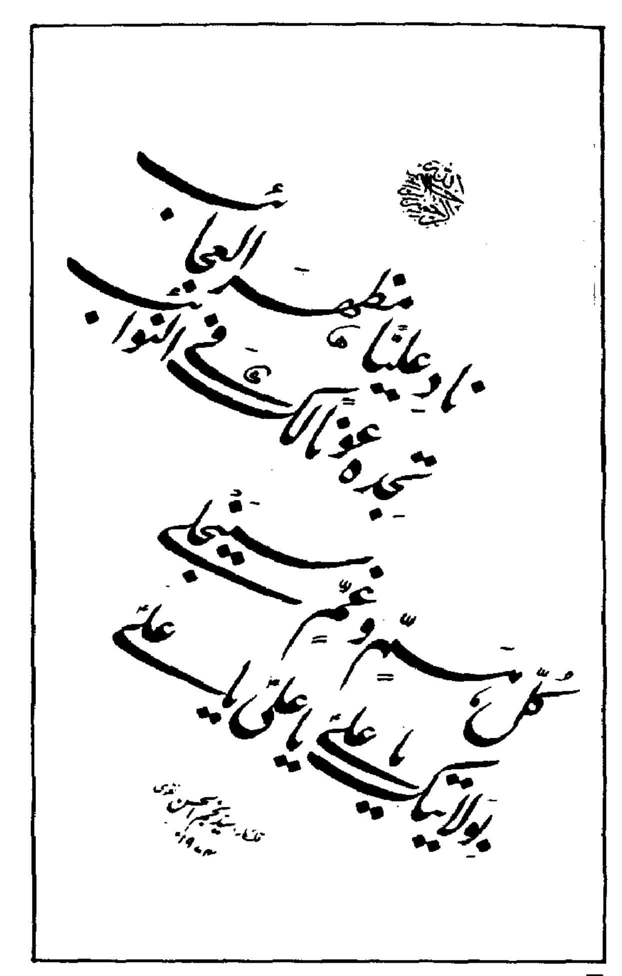
□ في الوسط، احد اسماء الله الحسنى بالأسلوب الطغري. في الحواشي، مقاطع من القرآن الكريم بالخط النسخي، لناسخ لكنو، سيد نجم الحسن، ١٩٧٤.

اورانـغـزِب (١٦٥٨ ــ ١٧٠٧). إلا أن ذلك لم يعن تـوقف النشـاط الفكـري والأدبـي في جميـع أنحاء البلاد، إذ انتقل هذا النشاط من دلهي (العاصمة) إلى لكنو مثلاً وغيرها، وظل، بفضل ما قام به الحكام المحليون، يثمر أشياء جديدة. ولكنو، ولو أنها ليست الوحيدة، فإنها مثل جيد على ذلك. والمهم هو أن لكنو وجدت من يؤرخ لها على الشكل الذي نقـع عليه في هذا الكتاب. ويقول فاخر حسين في مقدمة الكتاب إن الحياة التي وصفها عبد الحليم في كتابه ظلت حية إلى الأربعينات، وإن الذي قضى عليها نهائياً كان تقسيم شبه القـارة إلى دولتين ــ الهنـد والباكستان ــ سنة ١٩٤٧.

وفي أيام الامبراطور أكبر ازداد عدد السكان، وأصبحت لكنو مركزاً تجارياً غنياً. ويروى أن تاجراً فرنسياً استقر في لكنو بعد أن حصل على إذن بالإقامة من البلاط الامبراطوري. وقد أثرى وبنى أربعـة بيوت عـلى مقـربـة من السـوق الرئيسية. لكن لما طلب تجديد الإذن في السنة التالية رُفِضَ طلبه، ولما أراد أن يظل بدون إذن، أخرج من البلاد وصودرت أملاكه. وقد عرفت المنطقة التي بنى الفرنسي بيوته فيها والتي بنيت فيها دور وأقيمت فيها أبنية باسم (فرنجي محل) (أي حي الافرنـج!).

وفي سنة ١٧٣٢ عُيِّنَ نواب سادات خان برهان الملك حاكماً على لكنو، فجاء المدينة وقطنها على غير عادة الحكام الذين كانوا ينتدبون من يقوم بالعمل نيابة عنهم. وإليه يرجـع الفضل في إقامة بلاط ارتبطت به حياة القوم ونشاطهم في الحقول المختلفة. والواقـع أن إنشاء هذا البلاط كان مرتبطاً، بطبيعة الحال، بإنشـاء أسرة حكمت المنطقة واتخذت من لكنو عاصمة لها. والكتاب الذي بين أيدينا، بعد أن يتحدث عن تاريـخ لكنو والأسرة (أسرة أفاد) وحكومة منطقـة (أفاد) ينصرف إلى وصف الحياة الفكرية والاجتماعية، كما قلنا.

ونحن لا نريد أن نكتفي بالحديث عن الكتاب. ولكننا نود أن ننقل إلى قراء مجلة تاريـخ العرب والعالم خلاصات لبعض فصوله المتعلقة بالفكر والأدب والطب. فلكنو، في رأي الذين وضعوا وأعدوا الكتاب، كـانت آخر صفحـة لحضارة شرقية (إسلامية). ونحن نهتم هنا بها لأن هذه الحضارة حيثما نشأت (في نيشابـور اوهرات او دلهي أو لكنو)، وبقطـع النظر عن اللغة التي دونت بها أخبارها (فارسية أو أردية)، فإنها بِنْت الحضارة العربية الإسلامية. هذه هي صلتنا بها. ومن هنا كان اهتمامنا بها.



□ مقطـع من قصيدة «صلاة، لعلي، بالخط القاني. للسيد نجم الحسن، ١٩٧٤.



□ «بسم الله» مكتوبة بالطغري، على شكل صقر. الناسخ مجهول.

٢ ــ العلوم الإسلامية في لَكنو

بدءًا من عهد الأمبراطور أكبر (١٥٥٦ ــ ١٦٠٥) أصبحت لكنو كعبة يقصدها طالبو العلم لينتفعوا بمن كان من فيها من أهل العلم. وكان هؤلاء يجدون في لكنو كل ما يحتاجه العالم. ويعود تنظيم التعليم والتعلم في لكنو فيما بعد إلى المُلّا نظام الدين العالم المشهور من مواليد سِهالي، القريبة من لكنو. وقد تضايق نظام الدين من اضطراب الأمور في بلده فوفد على لكنو، وكان ذلك أيام أورنْغزبْ (١٦٥٨ ــ ١٧٠٧) فأحسن هذا استقباله ومنحه حق الإقامة في البيوت الأربعة التي كان قد بناها افرنسي في لكنو وصادرتها الحكومة. وهي التي كانت تعرف باسم «فِرَنجي مَحَل». فجاء نظام الدين بأسرته بكاملها وأقام هناك. ويبدو أن الإمبراطور أورنغزب وقف هذه البيوت الأربعة على العلماء والطلاب بحيث أصبحت المركز الرئيسي للعلم في لكنو، وبزعامة نظام الدين.

ونظام الدين هو الذي رتب أمور التعليم وبرامجه وهو الترتيب الذي عرف باسم «سلسلة ــ أي ــ نظامي» (أي سلسلة نظام الدين). وكان العلماء قد حملوا علمهم من دلهي إلى لكنو منذ أيام العالم عبد الحق (١٥٥١ ــ ١٦٤٢) وهو واحد من كبار المحدثين. ومع الزمن نما «فِرَنْجي مَحل» بحيث طغى في علمه وتعليمه على غيره من الأماكن. (وقد استعادت دلهي بعض ما كان لها لما قامت أسرة شاه ولي الله (١٧٠٢ ــ ١٧٦٢)). وإذا كان لهذه الأسرة فضل في الحفاظ على مكانة دلهي في علم الحديث، فإنه يجب أن نذكر أن النحو والمنطق والفلسفة الإسلامية والفصاحة والبلاغة كانت في أعلى مراتبها في لكنو. ويسمي عبد الحليم شرر، مؤلف الكتاب الذي نلخص عنه هذا الفصل، فرنجي

محل «جامعة لكنو». ويدلّل على ذلك بقوله أن كل كتاب كان يستعمل في تدريس العلوم الإسلامية قد وضـع في لكنو وفي فرنجي محل بالذات.

إلى جانب العلوم الإسلامية بالذات كان هناك اهتمام بالأدب العربـي. وقد ازداد هذا الاهتمام بسبب العالم مولاي دِلْدار علي، الذي دَرَس في «فِرَنجي محل» ثم ذهب إلى كربلاء حيث اتصل بالعلماء الشيعة، وعاد وقد حمل معه الكثير من



□ منمنمة من لكنو، أواخر القرن الثاني عشر ميلادي.

المعرفة في الأدب العربي. وعُيّن «مجتهداً»، واهتم بتدريس الأدب العربي. وقد ظل هذا التقليد، أي العناية بالعربية لغة وفصاحة وبياناً وأدباً، متبعاً بين علماء الشيعة في لكنو. ولعلّ ذلك يعود إلى أن الكثيرين منهم كانوا يذهبون إلى العراق للدراسة.

والسلسلة النظامية، التي وضعها نظام الدين، كانت تنظيماً للتعليم الديني، بحيث كانت تشمل الموضوعات الأساسية، في الأصول والفروع، كما كانت تنظم التدريس من حيث الأوقات وتسلسل الموضوعات. والذي نود أن نضيفه هنا هو أن هذا التنظيم نفسه يعود إلى أيام نظام الدين الوزير السلجوقي (القرن الثاني عشر) الذي أنشأ المدارس النظامية، وكان أساسها برمجة الدراسة وتعيين الأساتذة المختصين وجعل المدرسة مؤسسة رسمية عن طريق الوقف الغني عليها. والمغل الذين جاءوا الهند واستقروا فيها سنة ١٥٢٦ وأنشأوا ملكاً واسعاً، حملوا معهم الحضارة الإسلامية وأفكارها وعلومها ومؤسساتها من الشمال الغربي ــ حيث كانت المدارس النظامية منتشرة. (أسس نظام الملك عشر نظاميات في الشرق الإسلامي، كانت أهمها نظامية بغداد).

على أن عبد الحليم شرر، مع أنه يزجي لمدينته وعلمها المديح، فإنه لا يبخل عليها بالنقد. فهو يقول مثلاً أن لكنو لم تعن بالتراجم وتاريخ الرجال. كما يؤكد أن العلماء من مسلمي الهند لم يهتموا بالتاريخ أصلاً. وينقل قولاً سمعه وهو: «ما الذي يحمل القادة الدينيين على إشغال نفسهم بمعرفة ما قد حدث في وقت معين؟ إن اهتمامهم أساساً هو الجنة، لا أكثر ولا أقل».

وقد حفلت أيام لكنو بالمناظرات العلمية الدينية على اختلاف أنواعها ومناهجها ونهجها واتجاهها.

ويحدثنا عبد الحليم شرر عن التطور الذي أصاب العلماء، أو بعضهم على الأقل، في أواخر القرن التاسع عشر. فقد أدرك هؤلاء أنه من الضروري أن يعطى الطلاب وغيرهم الفرصة للاطلاع على ما يدور في الدنيا، لذلك أنشِئَتْ جماعةُ «ندوة العلماء» (١٨٩٥)، وهي التي عرفت، في أوائل القرن الحالي، باسم «كلية الندوة». وقد أقيمت هذه بتبرعات جمعت من المسلمين وكانت الغاية الأساسية منها إعادة النظر في مناهج علم الكلام واللغتين العربية والفارسية وآدابهما. وقد كان أحد كبار العاملين في سبيل إنشاء هذه الكلية شبلي نعماني (١٨٥٧ ــ ١٩١٤) وهو واحد من كبار أصحاب الفكر في تلك الفترة، وقد شغل مركز استاذ في جامعة عليكره الإسلامية. وبناء على اقتراحه أدخلت بعض المواضيع العلمية الحديثة واللغة الانكليزية في منهاج التدريس فيها. وقد ظلت هذه الكلية عاملة نشيطة إلى أواسط القرن الحالي. ومن الأعمال المهمة التي يعود الفضل في تأسيسها إلى شبلي نعماني «دار المصنفين»، وهي مؤسسة للبحث في القضايا الإسلامية.

ومما يجب أن يذكر هو أن عبد الحليم شرر بسبب اهتمامه الكبير بمدينة لكنو، لم يشر، ولو إشارة بسيطة إلى مؤسسة كان لها، ولا يزال، فضل كبير على الفكر العربي الإسلامي وهي «دائرة المعارف» في الجامعة العثمانية في حيدر أباد الدكن، التي عملت على نشر مئات من المخطوطات العربية في أصناف المعرفة المختلفة.

٣ ــ الطب العربي في الهند

بعد أن نضج الطب عند العرب، وبعد أن مزجوا عناصره اليونانية والهندية والعربية الأصلية والفارسية معاً، وأضافوا إليها الكثير، انتقل مع ما انتقل من عناصر الحضارة العربية الإسلامية إلى الأماكن التي كان للإسلام فيها صولة أو دولة (أو الاثنتان معاً). ووصل الطب العربي إلى الهند في القرن الثاني عشر للميلاد؛ وقد اهتم الهنود به، ولا شك في أن الأطباء الذين مارسوه أضافوا إليه، وخاصة في النواحي الصيدلية (أي تركيب العقاقير) أموراً جديدة لعل بعضها كان صينياً أصلاً.

والطريف في الأمر هو أن الطب العربي القديم، المبني على العلم والتجربة والصيدلة والمستشفيات تأخر في كثير من الأقطار العربية، لكنه استمر في مناطق متعددة من الهند وذلك في أيام الإمبراطورية المغلية (المغولية) التي دامت من ١٥٢٦ إلى ١٨٥٦. إلا أنه، والأمر غريب جداً، لا يُعْرَف هناك باسم الطب العربي أو الطب



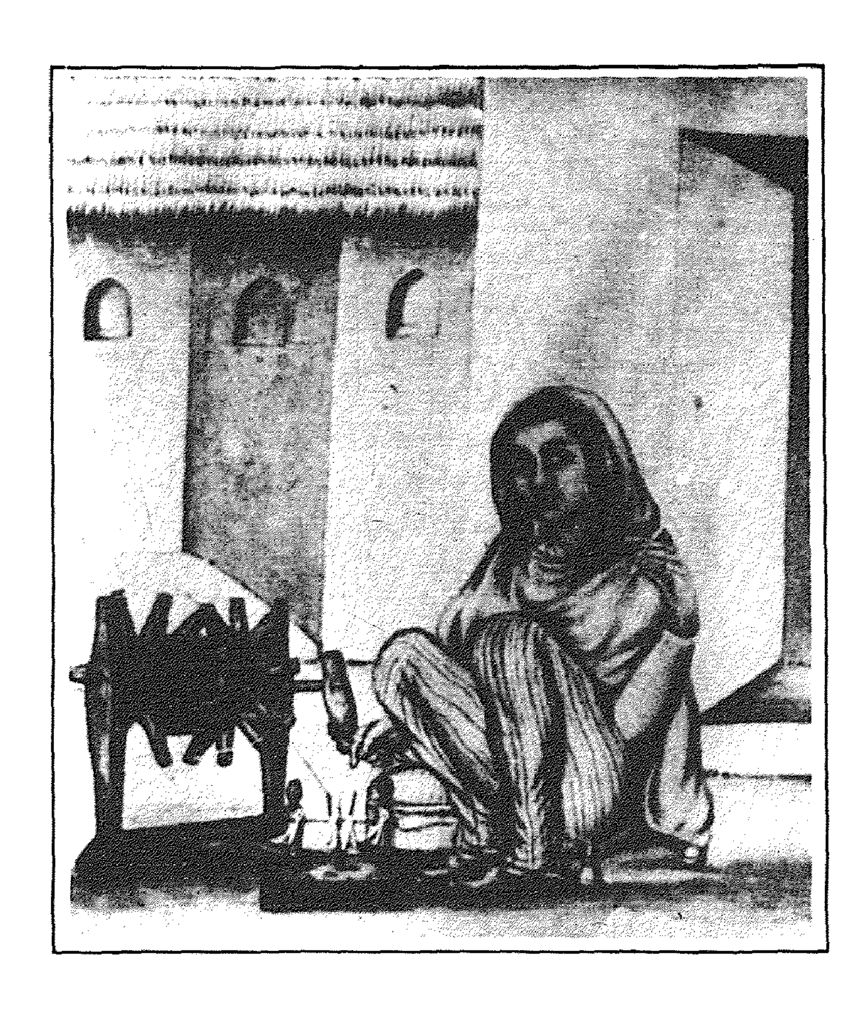
□ إمرأة من «لكنو» مائية للفنان مسكين محمد، ١٧٧٠ ــ ١٧٨٠.

الإسلامي بل باسم الطب اليونـاني (وباللغـة الأردية طِبِّ يوناني).

وكان من الطبيعي أن تكون دلهي، عاصمة الامبراطورية المغلية، المركز الأول لدراسة هذا النوع من الطب والعناية به؛ وهكذا كان، لكن في أول القرن الثامن عشر بدأت هجرة الأطباء إلى لكنو (ولعلّ ذلك يعود إلى اضطراب الأمور في العاصمة دلهي). وقويت حركة الهجرة هذه في النصف الثاني من القرن نفسه لما جعل شجاع الدولة، حاكم لكنو وسيدها (١٧٥٣ ــ ١٧٧٤) من بلاطه ملجأ ومقراً لأهل العلم والفكر، وقلد الأثرياء الحاكم الكبير، فكان لأكثر الأسر الثرية طبيب خاص بها يلي أمورها. ولم يكد القرن الثامن عشر يشرف على نهايته حتى كانت أكثر الأسر التي تعنى بالطب والطبابة وتدريب الأطباء قد انتقلت من دلهي إلى لكنو.

والقاعدة التي كانت متبعة إلى درجة محدودة من قبل، وهي أن تنجب الأسرة أطباء، ازدادت في لكنـو بحيث أصبـح الطب مهنة تحتكـرها مجموعة من الأسر لا تعنى بغيـرها من المهن الحرة أو الدراسات الأخرى، الإسلامية والأدبية على السواء.

ويقول عبد الحليم شرر أن تعليم الطب في لكنو كان دقيقاً بحيث كانت تتبـع مناهـج معينة وكانت تستعمل الكتب المـدرسية التي وضعت لهذا الغرض. لكن الأطباء الذين كانوا يقومون بتدريس الطب كانوا يضيفون الكثير من تجاربهم واختباراتهم وقد أخذ هؤلاء الشيء الكثير عن الطب 'الفيدي (أي الهندي الأصـلي) وخاصة في الأدوية المركبة.



□ امرأة تغزل القطن، لوحة مائية لفنان من لكنو.

وقد أنشئت في أواخر القرن الماضي مدرسة لتعليم الطب في لكنو سميت «كلية تكميل الطب» ـــ وقد استمرت هذه إلى حوالي سنة ١٩٤٠.

ونود أن نضيف أنه حتى في الوقت الحاضر لا تزال هناك مدارس ثلاث للتعليم الطبي في الهند وجميعها معترف بها رسمياً: وهي مدرسة الطب اليوناني (العربي)، وتسمى عادة طبية كولدج (Tibbiya College)؛ ومدرسة الطب الهندي المعروف باسم الطب الفيدي؛ ومدرسة الطب الحديث التي تسمى الكلية الطبية (Medical College). وجميعها معترف بها رسمياً. والمتخرج كلية الطب اليوناني (العربي) يسمى «حكيم»؛ والمتخرج من الكلية الحديثة هو الذي يشار إليه باسم الدكتور (أو الجراح)؛ والمتخرج من كلية الطب الهندي يسمى «فيدك».

وبقطع النظر عن التفاصيل فإن الطب اليوناني (العربي) في الهند وباكستان يعتمد على المواد الطبيعية، وأكثرها مواد نباتية، لتركيب الأدوية.

ومن أطرف ما حدث، مما نعرفه شخصياً بسبب الصداقة التي تربطنا بالأشخاص المعنيين، هو أن «حكيماً» مشهوراً كان في شبه القارة قبل التقسيم، اسمه عبد العزيز، كان له ابنان تخصصا في الطب العربي: الأكبر هو «حكيم عبد الحكيم» والأصغر هو «حكيم محمد سعيد». وبعد التقسيم ظل الأول في دلهي واستقر الثاني في كراتشي. والرجلان يعنيان لا بالتطبيب فحسب بل وفي البحث العلمي في العلوم الإسلامية من طب وغير ذلك. وكانت قد انشئت شركة كبيرة لإنتاج العقاقير اللازمة للطب العربي، وهي الآن فرعان، وقد وقف كل من الأخوين ما كان تحت تصرفه على مشاريع علمية وثقافية، وكل من المؤسستين تسمى «مؤسسة همدارد الوطنية» Hamdard National Foundation (ويضاف بعد اسمها الهند أو باكستان). فالطب العربي لا يزال موضع عناية في كل من البلدين. ●

التوجيهات البحرية الشهيرة في التاريخ العربي الإسلامي

بقلم
اللواء البحري الركن المتقاعد
وفيق بركات

إن إصدار التوجيهات هو عمل من أعمال القيادة السياسية ـ العسكرية العليا وقد عرف القادة العرب هذا النوع من الوثائق منذ عهد الرسول العربي (ص)، إذ كان يصدر التوجيهات العملياتية لقادة الجيوش والحملات وأحياناً لقادة السرايا والمواقع. ففي موقعة أحد (٣هـ/٦٢٥م) أصدر تعليمات واضحة محددة دقيقة موجزة جاء فيها: «احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل معسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا بنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل»(١)

الخليفة الراشد عمر بن الخطاب

(١٣ ـ ٢٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)



إن أول من ركب البحر للغزو في أوائل نشوء الدولة العربية الإسلامية هو العلاء بن الحضرمي في أيام الخليفة عمر بن الخطاب إذ كان عاملاً على البحرين فأراد أن يفتح سواحل فارس وبينه وبينها الخليج العربي، فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر، وخرج المسلمون يريدون البصرة فغرقت سفنهم ولم يجدوا للرجوع إلى البحر سبيلاً. فغضب عمر على العلاء وأمَّر عليه سعد بن أبي وقاص وقال له: «إلحق بسعد بن أبي وقاص بمن معك»[٢] ثم كتب عمر إلى عتبة بن غزوان بأن: «العلاء بن الحضرمي جعل جنداً من المسلمين في البحر فأقطعهم إلى فارس وعصاني وأظنه لم يرد الله عز وجل بذلك، فخشيت عليهم ألا ينتصروا وأن يغلبوا فاندب لهم الناس وضمهم إليك من قبل أن يحتاجوا»[٣]. فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فسار في إثني عشر ألفاً على السواحل وساعد في تنظيم انسحاب القوات العربية إلى البصرة ورجع أهل البحرين إلى ديارهم. فكانت بذلك أولَ غزوة بحرية وكانت تعليمات عمر أوّلَ توجيه عملياتي ينظم انسحاب القوات في تلك المعركة البحرية عن طريق السواحل ويحقق بعض النجاح فيها.

كان عمر بن الخطاب يخشى البحر ويحذر المسلمين من الهجوم بحراً فحين أراد عمرو بن العاص أن يجعل الإسكندرية حاضرةَ مصر كتب عمر يقول له: «إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحولُ الماءُ بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء...»[٤].

وعندما كتب معاوية إلى عمر وألحّ عليه يستأذنه ركوب البحر (وكان والياً على الشام) بعث عمر إلى عمرو بن العاص عامله في مصر يطلب إليه أن يصف له البحر فأجابه عمرو: «يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن رَكَدَ أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلّة والشكّ كثرة، هم فيه دود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق»[٥]. وعندما تلقى عمر هذا الكتاب بعث إلى معاوية برسالة جاء فيها: «لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء في الأرض... فكيف أحمل الجنود في البحر الكافر المستصعب، وتالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوته الروم. فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليك في مثل ذلك»[٦].

لقد كان عمر حاسماً قاطعاً في توجيهاته إلى معاوية بالابتعاد عن ركوب البحر للأسباب الرئيسية التالية:

ـ لم تكن لدى الدولة العربية الإسلامية المعرفة الكافية بشؤون البحر كما لم تكن لديهم الخبرة اللازمة بالحرب البحرية.

ـ لم تكن الدولة العربية الإسلامية قد صنعت ونظمت أسطولها البحري الحربي كما لم تكن لديهم أي خطط عسكرية بحرية أو فكر عسكري بحري حتى ذلك التاريخ.

ـ خوف عمر من ركوب البحر والتعامل مع مخاطره، خاصة بعد أن فشلت غزوة العلاء البحرية في فارس وحرصه على سلامة المسلمين بعد أن وقف على رأي عمرو بن العاص في البحر وراكبه، وبالرغم من ذلك لم يتردد الخليفة عمر في أن يطلق يد معاوية في «إصلاح حال السواحل بما رآه كفيلاً بسلامتها وحرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها...»[٧].

وكان هذا أولَ توجيه عملياتي بحري في الإسلام حول (الدفاع الساحلي). واستغل معاوية هذه التعليمات واتخذها خطوة أساسية يبني عليها مشاريعه البحرية، فآثر أن يُحَصِّنَ المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة بما يجعلها قواعد في المستقبل تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء. ومن وجهة النظر التاريخية والعسكرية نرى أن الخليفة عمر قد أصاب في توجيهه المذكور، وشكّل ذلك مرحلةَ إعدادٍ

واستعداد للانطلاق في الحروب البحرية الناجحة التي تلت ذلك.

الخليفة الراشد عثمان بن عفان (٢٣ ـــ ٣٥هـ، ٦٤٤ ـــ ٦٥٦م)

عندما تولى عثمان الخلافة كانت شوكة المسلمين قد قويت وتوسعت فتوحاتهم فألح عليه معاوية في ركوب البحر مستأذناً في غزوة جزيرة قبرص، فرفض أول الأمر ثم أجاز الحملة البحرية بعد ذلك بشروط في توجيه شهير جاء فيه: «... ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه»[٨]. وتدل كلمات عثمان في ذلك التوجيه على كياسة وخبرة ودراية بفن القيادة، إذ لم يجبر أحداً من العرب على ركوب البحر، لأن الحرب البحرية كانت ما تزال مجهولة ومخيفة للعرب حتى ذلك التاريخ وإن لجوءه إلى هذا الأسلوب قد دفع بالكثيرين للتطوع، فأبحر معاوية إلى جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ، ٦٤٩م) وصالحه أهلها على (٧٢٠٠ دينار)[٩]. وكان ذلك أوّل عبور قام به العرب لمياه البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم). وقد اصطحب معه في تلك الحملة بعض مشاهير القادة العرب مثل عبادة بن الصامت، وكذلك بعض كبار رجال الشام. واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث سجلت المرأة العربية اسمها بمداد الفخر في أولى حملات الأسطول العربي على جزر البحر الأبيض المتوسط، إذ اصطحب معاوية معه زوجته وأخته، كما أخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته (أم حرام بنت ملحان الأنصارية) التي توفيت في بداية الحملة ودفنت في قبرص وعرف قبرها منذئذ باسم: قبر المرأة الصالحة.

على أن أبرز توجيه للخليفة عثمان في هذا المجال ذلك الذي أصدره حول احتلال القسطنطينية: لم يكن العرب بعد الفتوح الشامية والمصرية مطمئنين إلى جانب الروم ولذلك كان عليهم أن يفتتحوا القسطنطينية قلب بيزنطة والعالم القديم وقلعة الروم المنيعة والرأس المدبر للتنظيم البحري للبيزنطيين في حوض المتوسط الشرقي، وقد حدد عثمان كيفية الاحتلال في توجيه عام شهير «أما بعد فإن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس...»[١٠]. وقد وضح هذا الاتجاه بعد أن افتتح موسى بن نصير الأندلس سنة (٩٢هـ، ٧١١م) وخطر له أن يقتحم الأرض الكبيرة (بلاد الفرنجة) ويخترق أوروبا ويفتتح القسطنطينية من الجهة الغربية، أي من جهة البر، ونستدل على ذلك أيضاً من المحاولات التي قام بها ولاة الأندلس في الفترة (١٠٠ ـــ ١١٤هـ) للإستيلاء على الأقاليم الجنوبية من فرنسا. والظاهر أن فشل معاوية في فتح القسطنطينية بعد حصار دام سبع سنوات (٥٤ ـــ ٦٠هـ) كان من العوامل التي دفعت المسلمين في الأندلس منذ عام ٩٩ ـــ ١٠١هـ (أي في خلافة عمر بن عبد العزيز) إلى البدء بغزو ما وراء البرتات[*]، ولكن الهزيمة التي مني بها المسلمون في معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ، ٧٣٢م) وضعت حداً لمحاولاتهم وكان هذا الهدف حافزاً للمسلمين منذ البداية على إنشاء أسطول حربي يتوسلون به بادىء ذي بدء للسيطرة على جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي واتخاذها نقطة ارتكاز أمامية وقواعد بحرية ومراسي لأساطيلهم تجاه السواحل البيزنطية حتى يتهيأ لهم الانقضاض من هذه المراكز على القسطنطينية، وقد نجح معاوية في غزو قبرص عام (٢٨هـ) ثم غزاها ثانية عام (٣٣هـ)، وتوالت انتصارات العرب في هذا الجزء من البحر المتوسط حتى كانت معركة ذات الصواري حيث حققوا انتصاراً حاسماً ثبّت لهم السيادة في البحر الأبيض المتوسط.

في العهد العباسي

توقف النشاط البحري في أوائل العصر العباسي فترة من الزمن دامت ما يقرب من خمسين عاماً[١١] بسبب انصراف الدولة العباسية عن شؤون البحر، وتوقفت عن محاربة البيزنطيين في البحر المتوسط بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية وانتهاجها منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان، ومع ذلك فقد أبدى بعض خلفاء بني العباس اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية حتى أن الرشيد (١٧٠ ـــ ١٩٣هـ) أراد أن يوصل ما بين بحر الروم (المتوسط) وبحر القلزم (الأحمر) في بلاد الفرما (قرب بور سعيد) نحو بلاد تنيس فنصحه يحيى بن خالد البرمكي بالانصراف عن تنفيذ ذلك وأخافه من دخول مراكب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز فعدل الرشيد عن ذلك[١٢].

ويوجد في مكتبة كوبرلي باسطنبول مخطوط



□ معركة ليبنتي البحرية سنة ٩٧٩ : هاجمت أساطيل «الحلف المقدس» المؤلف، بدعوة الباب، من إسبانيا، البندقية، جنوى، نابولي ومالطا، الأسطول العثماني الراسي في المياه اليونانية وأفنت معظمه، بعد مقاومة قل أن شهد التاريخ مثلها، إذ سقط فيها من العثمانيين عدد كبير من القتلى بينهم القائد الثاني سيروكو، باشا مصر، والأميرال الأعلى علي باشا الذي فضل الانتحار على الوقوع في يد الأعداء.



□ كان الاسطرلاب المسطح من أهم الأجهزة التي استخدمها الفلكيون في العصر الوسيط.

لكتاب الخراج لقدامة بن جعفر (٨٨٨ ــ ٩٥٨م)[١٣] فيه (نص عهد) صادر عن الخليفة العباسي إلى أحد أمراء البحر، وتوضح هذه الوثيقة سلطات قائد الأسطول العربي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهو أكثر التوجيهات البحرية تفصيلاً، بالإضافة إلى أنها وحيدة من نوعها في التاريخ العربي الإسلامي من حيث كونها وثيقة حربية مهمة تلقي ضوءاً على واجبات أمراء البحار وصناعة السفن وصيانتها وأمور الملاحة البحرية والتدريب البحري والحرص من تجسس العدو واستطلاعه، وتوضح ما كان عليه النظام البحري في الدولة العربية الإسلامية في ذلك الوقت من وعي وصرامة، كما يشكل هذا التوجيه دستوراً أخلاقياً عظيماً يصلح العمل به في كل زمان ومكان. وقد جاء في ذلك التوجيه الهام:

«هذا عهد أمير المؤمنين إلى... (...) حين ولاة «الثغر الفلاني» وبحره ومراكبه: أمره بتقوى الله وطاعته والحذر من عقابه واتباع رضائه وإيثار الحق في جميع أفعاله وأمره بتعهده نفسه حتى يقيم أودها وينفي بذكر الله الهوى وزيغ الشيطان عنها. وأن يزكي سجيته ويطهّرها ويهذب سيرته وينقيها ويكون لمن معه من الجند وسائر الأولياء في الخير إماماً ومعلماً وعلى سلوك أفضل المناهج حاضاً ومُقَوِّمَاً، وأمره بلين لأهل الطاعة ويشتد على ذوي المعصية ويعطي على كل حال قسطها من النصفة والمعدلة.

وأمره أن يستعمل على شرطته من يرضي عقله ويثق بجزالته وصرامته وشدته على أهل الريب والدعارة.

وأمره أن يكون الإذن عليه لمن معه من الجند مبذولاً، والوصول إليه من ذوي الحاجات والمظلمات سهلاً يسيراً.

وأمره أن يديم عرض جنده حتى يعلم علمهم ويطلع على حقيقة أمرهم ويلزم مراكبهم. وأمره أن يشرف على مراقبة محارسه حتى يحكم أمر المرتبين فيها، ويدر عليهم أرزاقهم، ولا يتأخر عنهم في شيء فيها.

وأمره أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها ويتخيَّرَ الصناع لها ويشرف على ما كان منها في المواني ويرفعها من البحر إلى الشاطىء في المشاتي وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها.

وأمره أن يكون نواشيره وعيونه الذين يبعث بهم ليعرفوا أخبار عدوهم من ذوي الصدق والنصيحة والدين والأمانة والخبرة بالبحر ومروانيهم ودخلاته ومخابيه حتى لا يأتوا إلا بالصدق من الخبر والصحيح من الأثر(**) ــ وإن أرهقهم من مراكب العدو ما لا قوام لهم به انحازوا إلى المواضع التي يعرفونها ويعملون للنجاة بالانحياز إليها.

وأمره أن لا يدخل في النفاطين والنواتيه والقذافين ولا في غيرهم من ذوي الصناعات والمهن في المراكب إلا من كان طبياً ماهراً حاذقاً صبوراً معالجاً وأن يكون من يحمله معه في المراكب أفضل الجند وخيار الأولياء وأصدق نية واحتساباً وجراة على العدو وارتكاباً.

وأمره أن ينظر في صناعة المراكب نظراً تكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيرها حتى يحكمها. ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلفطتها وتركيبها، ويستجيد المقاديف ويتخيرها وينتقي الصواري والقلوع وينتخبها وَيُمَيِّزَ النواتيه ويعتمد من له الحذاقة والمهارة والدربة والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصح دخوله ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه.

وأمره أن يتحرس من أن تنفذ العدو حيلة في اجتناء الأسلحة أو شيء من أدوات الحرب والمكيدة من أرض الإسلام، أو أن يطلق لأحد من التجار حمل شيء إليهم أو إقامة الطريق إلى بلدهم. ومن وجده قد أقدم على هذا وما جانسه من الناس جميعاً عاقبه عقوبة موجعة وجعله نكالاً وعظة.

وأمره أن يضم المراكب في المواني التي ترسي فيها ويولي مراعاتها من يثق بنصيحته وشهامته حتى لا يخرج منه مركب إلا بعلمه، ويشرف عليها في كثير من الأوقات حتى لا يخرج منه مركب إلا بعلمه، ويشرف عليها في كثير من الأوقات حتى لا تكون على هيئتها مجلوة مسنونة مقومة موصونة إلى وقت الحاجة إليها والعمل بها ويشرف على ما فيها من النفط والبلسان والحبال

وغيرها حتى يحتاط في ظروفها وأوعيتها ويأمن الفساد والتغيير عليها(***) .

وأمره بشدة الحذر من جواسيس العدو وعيونه وأن يوكل لكل مدينة من يعلم حالها ولا يطلق لأحد من البوابين والحرس أن يدخلها إلا من يعلمون حاله وسبيل مدخله وصورته ومغزاه وإرادته (****) .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وأمره إياك فافهم بما حدّه ورسم وكن عند حسن ظنه بك في جميعه وهو يسأل توفيقك وإرشادك إلى ما فيه الخيرة في جميع ما أسند إليك واعتمد فيه عليك»[١٤].

في العهد الأيوبي

اهتم صلاح الدين الأيوبي بالأسطول البحري وانشأ ديوان الأسطول تأكيداً على ذلك وخصص له الأموال الضخمة وأمر بتنفيذ أوامر قيادته: «... والقول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه...»[١٥].

كما اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام فحشد فيها الأجناد البطالين[١٦] والأيزاك[١٧] والأبدال[١٨] والمنورين للمرابطة فيها وحراستها، وقد أصدر توجيهات هامة حول الدفاع الساحلي وردت في مرسوم شهير بهذا المعنى: «إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والمواني والاهتمام بأمرها وإقامة الأيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها وكذلك المنورون بالديدبانات[١٩] والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة وتعهد أحوالها»[٢٠].

بعد عهد صلاح الدين صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل العربية، ففي أيام السلطان الكامل وولده السلطان الصالح أيوب شهدت مصر اهتماماً بالأسطول الأيوبي نتيجة للحملات الصليبية التي هاجمت السواحل المصرية، ويظهر لنا هذا الاهتمام في الوصية التي كتبها الصالح أيوب قبل وفاته لابنه تورانشاه ويقول فيها:

«... فالأسطول أحد جناحي الإسلام فينبغي أن يكونوا شباعاً، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهماً مستمرة دائبة، جاؤوا من كل فج عميق، وهم رجال معروفون بالقذف والقتال».

وقد حدَّدَ هذا التوجيه الأسطولَ والجيشَ جناحين للإسلام وسبق بذلك القيصرَ الروسي بطرس الأول بعدة قرون حيث قال: «الدولة التي تملك جيشاً لها يد واحدة، أما الدولة التي تملك جيشاً وأسطولاً فلها يدان اثنتان».

جناحان ويدان: تعبيران يدلان على مكانة الأسطول البحري الحربي في تاريخ الشعوب، وأن قوة الدولة تكمن في التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية لتحقيق النصر، وهذا ما تفعله الدول الكبرى المتقدمة في الظروف الحديثة، والحرب العالمية الثانية والحروب الإقليمية التي تلتها غنية بالأمثلة على ذلك، وكذلك الحروب التي خاضتها قوات الدولة الإسلامية مثل حصار القسطنطينية.

وهكذا نجد أن تلك الوثائق البحرية الهامة في تراثنا العربي الإسلامي قد تميزت بالدقة والأصالة والشمولية فبقيت خالدة في سجلات التاريخ لتفرض نفسها على مفاهيم العصر الحديث. ●



الهوامش

(١) العماد مصطفى طلاس: الرسول العربي وفن الحرب، ص ٢٦٣.
(٢) جميل خانكي: تاريخ البحرية المصرية، ص ١١٦؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ١٨٩.
(٣) خانكي، ص ١١٦؛ المقريزي، ج ٢ ص ١٨٩.
(٤) ياسين الحموي: تاريخ الأسطول العربي، ص ١٢؛ أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ٨٨.
(٥) خانكي، ص ١١٧؛ الحموي ص ١٢.
(٦) خانكي، ص ١١٧؛ الحموي، ص ١١٢.
(٧) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ١٦.
(٨) المقريزي، ج ٢ ص ١٩٠، د. أنور عبد العليم، ص ٨٨، خانكي، ص ١١٧، الحموي، ص ١٣.
(٩) د. عبد العليم، ص ٩٢؛ الحموي، ص ١٤ (ذكرها ستة آلاف فقط).
(١٠) ابن الأثير الكامل في التاريخ (طبعة بيروت ١٩٦٥)، ج ٣ ص ٩٣؛ عبادي وسالم، ص ٢١.
(*) جبال البرنس باسبانيا (أطلق العرب على هذه الجبال اسم (البرت) وهي مشتقة من كلمة (بورت) أي باب د. علي خربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط، ص ٣٣.
(١١) عبادي وسالم، ص ٣٧ (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام).
(١٢) المسعودي: مروج الذهب، مجلد ٢ ص ٢٦٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٦؛ عبادي وسالم، ص ٣٨.
(١٣) د. علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط، ص ١٥٢ وحتى ١٥٤ (حيث أورد شرحاً للوثيقة وقسمها إلى بنود: اختبار الرجال، معاملة الرجال، بناء السفن وأماكن رسوها، الخدمة السرية ومنع تسرب المعلومات البحرية). الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٣٧١ (بالنسبة للتاريخ).
(١٤) د. إبراهيم العدوي: الأساطيل العربية في البحر المتوسط، ص ١٥٨ حتى ص ١٦١؛ د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ١٠٥ حتى ١٠٧.
(**) وهذا يماثل الاستطلاع والتجسس في العصر الحديث.
(***) وهذا بمجمله يعادل القيادة المركزية في الظروف الراهنة.
(****) وهذا يماثل إجراءات مكافحة التجسس في العصر الحديث.
(١٥) أبو شامة كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، ج ١ ص ٢٦٩.
(١٦) البطالون من الأمراء والأجناد: هم العاطلون عن أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة. (راجع المقريزي: السلوك، ج ١ ق ١ ص ٧٢ حاشية ٤).
(١٧) اليزك والايزاك: الحراس.
(١٨) الأبدال: بمعنى البدل الذي يحل محل الحرس.
(١٩) الديدبان كلمة فارسية الأصل (ديده بان) ومعناها المراقب او الحارس وتعني أيضاً مكان المراقبة من موقع مرتفع.
(٢٠) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧ ص ٢٠٤ ج ١٠، ص ٢١٢؛ عبادي وسالم، ص ٢٧٤.

المراجع

١ ـ العماد مصطفى طلاس: الرسول العربي وفن الحرب.
٢ ـ جميل خانكي: تاريخ البحرية المصرية.
٣ ـ المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.
٤ ـ ياسين الحموي: تاريخ الأسطول العربي.
٥ ـ د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب.
٦ ـ د. احمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام.
٧ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ.
٨ ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء.
٩ ـ المسعودي: مروج الذهب.
١٠ ـ د. علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في حوض المتوسط.
١١ ـ د. إبراهيم العدوي: الأساطيل العربية في حوض المتوسط.
١٢ ـ أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.
١٣ ـ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا .

الحِرَف والصناعة الشعبيَّة في صَيدا

منذ الفتح العثماني إلى الحملة المصرية على بلاد الشام

١٥١٦ - ١٨٣٢ (القسم الثاني)

د. حسين سلمان سليمان

□ مرفأ صيدا (للفنان دافيد روبرتس ١٨٣٩).



ومن حرف التغذية أيضاً حرفة المعصراني، وهو صاحب المعصرة، أو مستأجرها، والمعاصر أنواع، منها ما هو لدرس السمسم واستخراج الطحينة منه، والتي تدخل في صناعة الحلاوة الطحينية، ومنها ما هو مخصص لاستقطار الزيت، وذلك بسحق ثمار الزيتون، وعصره بمكابس عادية، ومنها ما هو مخصص لدرس زبيب العنب الأحمر، واستخراج الدبس منه[٧٩]. وأشارت مصادر تاريخ صيدا عن وجود عدد من المعاصر في المدينة، نسبت إليها حارات ومحلات، وباستثناء معصرة لدرس السمسم، وأخرى لدرس الزبيب الأحمر، لم تحدد المصادر المذكورة أنواع بقية المعاصر، وهي التالية: واحدة بالقرب من قلعة المعز، ومعصرتين في سوق اللحامين، واحدة ملك محمد أبي ظهر، والثانية تعرف باسم معصرة البوشي، ومعصرة الحاج حسن المعصراني في ساحة المصلبية، ومعصرة لدرس الزبيب في سوق اللحامين[٨٠].

ومن حرف التغذية حرفة «الخضرجية»، وهم باعة الخضار والبقول وغير ذلك مما هو معلوم، ويحقق أرباب هذه الحرفة أرباحاً وفيرة في الصيف، بسبب كثرة وتنوع الخضار والفاكهة في هذا الفصل، وكان لهم سوق خاص تدعى «سوق الخدرية» تقع إلى الشمال من خان الفرنج[٨١].

وكانت صناعة[٨٢] الحلويات من حرف التغذية الهامة، لاتصالها بمظاهر الحياة اليومية، التي عاشتها الشريحة الاجتماعية الميسورة الحال، ولارتباطها ببعض الاحتفالات والتقاليد الاجتماعية من جهة أخرى. وقد قامت هذه الصناعة على السكر، وأجاد صناعها صنع طائفة كبيرة من الحلويات المحشوة بالسكر والفستق واللوز والصنوبر، كالبقلاوة على أنواعها والبورما، والشعيبيات، والكنافة بأنواعها، والمعمول، والغريبة. وهذه الحرفة كانت تروج ويشتد الطلب عليها في بعض المواسم والأعياد الدينية، في منتصف شعبان، وشهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى والمولد النبوي، إذ يحرص الأهالي في هذه المناسبات، على شراء الحلويات التي تمتلىء بها الأسواق لأهل المنزل، وإهداء الأقارب والأصدقاء، على نحو ما يحدث الآن في مثل هذه المواسم والأعياد الدينية. وهذا ما يدفع باعة الحلوى، إلى صنع كميات تزيد عن الكميات التي اعتادوا بيعها في الأيام العادية، وأطلق اسم الحلواني على صانع الحلوى وبائعها.

ومن حرف التغذية أيضاً، حرفة العطارين، وهم باعة السكر والأرز والملح وغيرها، وما لبس من السكر على اللوز «الملبس»، وما يلبس على الحمص «القضامة بالسكر»، وما صنع من السكر والنشا راحة الحلقوم، وما عقد مع السكر من الفستق والوز «عرابيش الفستقة»، وما عمل من الفواكه بفطر السكر «المربيات»، وما صنع من أصناف الشراب. كما كانوا يبيعون اللوز والفستق المحمص والبندق والجوز والصنوبر القلب وأصناف البهارات، وأشياء أخرى[٨٣]، وكانت لهم سوق خاصة موقعها بالقرب من مقام سيدي أبي نخلة[٨٤].

وارتبط بحرف التغذية، حرفة استقطار ماء الزهر وماء الورد، فيؤخذ ما نسبته عشرة أجزاء من زهر النارنج، الصُفر (بضم الصاد) الرطب الجيد الرائحة ويوضع في الانبيق، فوق الحجاب الحاجر، ويصب عليه ما نسبته عشرون جزءاً من الماء، ومتى تقطر، يؤخذ الماء المتقطر، ويحفظ، وهذا هو المسمى بماء الزهر المكرر، وعند العامة بالراس. ثم يداوم على التقطير حتى يحصل على ثلاثة أرطال إلى خمسة، فيؤخذ، ويحفظ، وهذا هو المسمى بماء الزهر المعتاد[٨٥]. أما ماء الورد، فيؤخذ من وريقات تويج الورد القوي الرائحة المنقى، فتوضع في الانبيق فوق الحجاب الحاجز، ثم يصب فوقها الماء، حتى يحاذي أسفل الحجاب المذكور. ثم يقطر فيتصاعد بخار الماء، وينفذ من بين الوريقات، فيتحمل بالأصل العطري، وينفذ في الملتوي، فيستحيل سائلاً. ومتى تقطر مقدار الورق الموضوع، تتوقف العملية، ويسمى هذا الماء بالراس، وما يجري تقطيره بعد ذلك، يكون ضعيف الرائحة ويسمى بالبسيط[٨٦]. وكان يستفيد من ماء الزهر والورد، المصابون بالقبض والمعرضون لأوجاع المعدة والصداع، كما يضاف هذا الماء إلى أنواع الحلويات على اختلاف أجناسها، فيتحسن طعمها، وتكتسب رائحة ذكية تجلب للمتناول

القابلية[٨٧].

ومن حرف التغذية أيضاً، حرف المشروبات المنعشة المباحة، كشراب الورد والتوت والتمرهندي، والليموناضة المركبة من السكر والليمون والبرتقال، فيضع بعض الباعة هذه المشروبات في «حق» من بلور لطيف المنظر ويضيف إليه الثلج ثم يحمله تحت أبطه في «كمر» من جلد يحزمه بوسطه على كتفه، ويأخذ بيده عدداً من الكاسات، ويدور بهذه المشروبات في الأزقة والحارات، وأطلق اسم «شربتجي» على من يعمل في هذه الحرفة، وكان يتعيش منها كثيرون[٨٨]، وكان بعض الباعة يمارس حرفة بيع شراب نقيع السوس في فصل الصيف، فيحمل الصنّاع قرب الجلد المملوءة بشراب السوس المذوب بالثلج، ثم يأخذون الكاسات، ويدورون في الأزقة والأسواق، يبيعون المارة من هذا الشراب، ولا تزال حتى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم السوسي[٨٩]. وفي زمن الشتاء كان هؤلاء الباعة يستبدلون الجلاب بالمشروبات المذكورة، فإذا كان متقناً كان شراباً لذيذاً[٩٠].

ويتصل بحرف التغذية حرفة تحميص البن وبيعه مدقوقاً في محل يدعى «محمص بن»، وحددت مصادر تاريخ صيدا موقعة في خط خان الفرنج في سوق العقادين[٩١]، وكان يتم ذلك بأن يحمص البن على نار هادئة، ثم يوضع في جرن حجري، حيث يقوم الصنّاع الدقاقون بدقة بمدقات من الحديد ثم ينخلونه بالمناخل، ويصنف بعد ذلك إلى ثلاثة أصناف جيد ووسط وأدنى. واعتاد بائع البن، ويعرف باسم «البني»، على غش هذه السلعة بتحميص القضامة المكسرة والشعير مع البن، فانحصر زبائنهم بالقهوجية أو من يتكاسل عن دقه في داره[٩٢]، ولا يزال حتى الآن توجد عائلة في صيدا تحمل اسم البنّي.

واكتناف البحر لمدينة صيدا، لعب دوراً هاماً في توجيه النشاط الاقتصادي للأهالي، فاهتموا بجني المحصولات الصناعية التي تتولد منه، إذ يعيش في هذا البحر أنواع عديدة من الأسماك، والأصداف، والهلاميات، وذوات المفاصل، وذوات الجلد المشوّك، والسلاحف. فعمد الصيداويون إلى صيد[٩٣] الأسماك المتنوعة، فكانت سبب معاش الكثيرين ومنبع ثروة لهم، ومن بين هذه الأسماك: الزليق، والسلطان إبراهيم، والفريدة، والجربيدة، وسمكة موسى، واللقس، والبوري، والدهبان، والسفرني، والسرغوس، والبلاميدا، والعرموط، والشبوط، وسمك السيف والغبس، والحنكليز البحري. أما من الأصداف فقد اصطادوا الاستريديا والزرنباية والاخنبوط، وأنواعاً مختلفة من الأبواق للأكل، كما اصطادوا من ذوات المفاصل، الكركند والقريدس، والسراطين، ومن ذوات الجلدة المشوكة التوتيا[٩٤].

ويلعب الملح دوراً هاماً في صناعة التغذية، فقد نجح بعض الصيداويين بإقامة ملاحات لتجفيف مياه البحر، واستخراج الملح منها، وذكرت مصادر تاريخ صيدا عن ملّاحة بالقرب من منطقة البحر المالح، ويبدو أن هذه الملّاحة لعبت دوراً اقتصادياً بارزاً في المنطقة المتواجدة فيها، إلى حد سميت تلك المنطقة بـ محلة الملاحة، وأقامت السلطات العثمانية مخزناً لخزن الملح المستخرج منها، وأطلق لقب الملّاح على من كان يعمل في حرفة صنع، أو بيع الملح، ولا تزال إلى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم الملّاح[٩٥].

وتعتبر حرفة اللحامين من حرف التغذية الهامة، وكانت لهم سوق خاصة حددت المصادر موقعه بالقرب من الباب الشمالي لخان الفرنج، وكان يتم الذبح في المسلخ، ثم يأتي بها اللّحام إلى دكانه، لبيعها لزبائنه على حسب طلب المشتري[٩٦]. ويحظر المحتسب على اللحامين الذبح أمام دكاكينهم، لتجنب تلويث الطريق بالدم والروث، لأن في ذلك تضييق للطريق، وإلحاق الضرر بالناس، بسبب رذاذ النجاسة، كما يحظر عليهم تعليق اللحم خارج حدود مصاطب دكاكينهم، وإنما يكون داخل المصطبة، لئلا يلحق الضرر بالناس بسبب اصطدامهم بها. ويجب أن يكون اللحام مسلماً، عالماً بأحكام السنن والفرائض والفضائل، وشروط الصحة العامة، وما يجوز أكله من الذبيحة وما لا يجوز وما يكره وما اختلف فيه، خوفاً من أن يطعم المسلمين الحرام، ويأخذ ما لا يستحقه من اموالهم[٩٧]. وان يتم الذبح بسكين حادة على أن تغرز في شفر النحر، وهي الوحدة التي في

اعلى الصدر واصل العنق، وإن تذبح الأبقار والأغنام، وهي مضجعة، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة، وتخرج منها الروح[٩٨].

ويرتبط بحرفة اللحام حرفة أخرى هي حرفة الرواس، وهو بائع رؤوس الغنم المطبوخة، وغيرها من الكروش والقوائم«المقادم»، وهي حرفة رائجة كان يتعاطاها الفلاحون والفقراء، وترد عليهم أرباحاً وفيرة[٩٩]، ولا يزال حتى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم الرواس.

ورغم الطابع الإسلامي للمدينة، فقد كان مباحاً فيها بيع الخمر علانية، فقد ذكر التاجر الفرنسي (Arvieux)[١٠٠] الذي أقام في المدينة ما يقارب الأربع سنوات، على أنه كان يتواجد فيها خمارة كبيرة كانت تبيع الخمر، كان يدفع مستثمرها «الخمرجي»، مبالغ كبيرة للوالي العثماني كرشوة، مقابل السماح له ببيع هذا المشروب، وبأن رواد هذه الخمارة، كانوا من جميع المذاهب الدينية. كما ذكر بأن الخمر كان يباع أيضاً في ثلاث مقاه أخرى.

حرف المصنوعات الجلدية

ومن خلال أسماء الأنشطة الاقتصادية المتعلقة بالمصنوعات الجلدية، نستطيع التعرف على كثير من الحرف المرتبطة بها، فقد استحضر الصيداويون جلود الخام كلها أو بعضها من الخارج، بغرض دبغها وتصنيعها فكل جلود الحيوانات يمكن أن تدبغ إذا أريد دبغها، ولكن أكثر ما يدفع منها جلود الغنم والماعز والبقر، وقد تدبغ أيضاً جلود الخيل والحمير وغيرها، وأجود الجلود وأمتنها للنعال جلد أبي الجاموس وجلد الثور، أما جلد البقرة، فدون جلد الثور، وجلد العجل أرق من جلد البقرة، ولكنه إذا دبغ جيداً يصير ليناً جداً، فيستعمل فرعة. وجلد الخيل يدبغ لعمل السروج فقط، وجلد الغنم والماعز لتجليد الكتب ويعرف دبيغه بالسختيان[١٠١].

ويؤخذ الجلد وينقع في الماء، حتى يلين، فيقوم الدبّاغ بتنظيف باطنه، أي الذي يلي اللحم، ما التصق به من الأغشية والمواد الدهنية، ثم يعيده إلى الماء، ويبقيه فيه أربعاً وعشرين ساعة، ويشرع في إزالة الشعر عنه، إلى أن يصبح جاهزاً للدبغ، حيث يغطس في أحواض تحوي مواداً دابغة، فيمكث إلى أن يتشرب جيداً ويدبغ. فيرفع الجلد من حياض الدبغ، ويكنس عنه ما يعلق به من موادها، ثم ينشف على بلاطة ملساء، ويطرّق بمطارق من الخشب والحديد، حتى يصبح مكتنزاً مندمجاً لا يتغير شكله عند اللبس[١٠٢]. وقد نمت حرفة دباغة الجلد وكثر عدد العاملين فيها تجارة وصناعة، ففي حقل التجارة، كان يتم ذلك في خان الدبّاغة. أما التصنيع فكان يتم في الدبّاغة. وحصر عمل الدبّاغين بعيداً عن المناطق البعيدة عن مراكز تواجد كثافة سكانية، وإنما في منطقة تتواجد فيها الخدمات التي يتطلبها دبغ الجلود، مثل المسلخ للتزود بالجلود، والمياه لغسلها. كما ان الروائح الناتجة عن العمل، وما يلحق بها، يتطلب حصر الدبّاغات في أمكنة معينة، لذا تواجدت الدباغات في الأماكن التي تتواجد فيها الشروط اللازمة لإنجاز هذه الصناعة[١٠٣]. فقد أشارت مصادر تاريخ صيدا العائدة للعام ١٧٨٥ عن وجود دبّاغة في الطرف الشمالي الغربي لباطن المدينة ونسبت الحي والحارة الواقعة فيهما إليها[١٠٤]، كما أشارت وثائق العام ١٨٣٩ عن وجود دبّاغة أخرى خارج المدينة تقع شرقي البحر المالح، وعلى الضفة الجنوبية لنهر القملي[١٠٥].

ويتصل بحرف الصناعات الجلدية، حرفة الصرماياتي، وهو صانع الصرامي، وهي نوع من النعل الأحمر بدائر بدون كعب كان لبسها شائعاً آنئذ، وكان بعض الصنّاع ممن لديهم رأس مال، يصنع هذه الصرامي لنفسه، ويبيعها لمن يرغب من المشترين، في حين كان البعض الآخر يصنع بالأجرة لحساب تجار هذه الأصناف، بعد أن يزوده هؤلاء بالمواد الخام[١٠٦]. وكانت لهم سوق خاصة تدعى سوق الصرماتية، يقع شرقي خان الفرنج إلى الغرب من حارة اليهود[١٠٧].

وارتبطت بحرف الصناعات الجلدية حرفة السكافيين، وهم من كانوا يقومون بتخصيف النعال القديمة[١٠٨]، وكانت لهم سوق خاصة يمتد من سوق الصرماتية غرباً، وتنتهي بالقرب



□ إحدى المقاهي الشعبية في صيدا ـ القرن التاسع عشر.

من حارة اليهود[١٠٩].

ومن حرف الصناعات الجلدية، حرف صنع معدات الركوب، فقد أشارت الوثائق الفرنسية إلى حرفة الجليلاتي[١١٠]، وهو من يصنع جلال الدواب، ليوضع على الدابة لتصان بها، وكان الصنّاع ينوعون الجلال، على حسب المركز الاجتماعي لمن يطلبها، فمنها الجميل الذي يشبه السروج، فيوضع على دابة الراكب من أمير وما دون، ومنها المتدني الذي يوضع على دواب الحمالة[١١١]. وهذه الحرفة كانت رائجة للغاية، لأن دواب النقل كانت الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها الناس في انتقالهم من المدينة إلى خارجها. ويتصل بهذه الحرفة أيضاً، صناعة السروج التي توضع على ظهر الخيل للركوب فوقها، والمعدات الجلدية الأخرى التي تلزم لركوب الخيل وغيرها من الدواب، من لجام ورسن وحياصة، وبيوت للبنادق الصغيرة تكون مطرزة بالحرير والقصب على حسب رغبة المشتري، وكانت هذه الصنعة من الصناعات الرائجة، وموضع احترام من قبل الناس[١١٢].

حرف صناعة الأقمشة والملابس

وازدهرت حرفة صناعة الأقمشة والمنسوجات والحرف المتصلة بالملابس ازدهاراً كبيراً في ذلك الزمن، ويتضح من خلال تنوع الحرف المتصلة بالملابس، مدى حرص الناس على أناقتهم بشكل عام، وهو أمر يتفق وحقيقة البناء الطبقي لذلك المجتمع. فقد كانت المدينة مقراً للإمارة المعنية، في عهد فخر الدين المعني الثاني، حيث شهدت مرحلة متقدمة للغاية من النشاط الاقتصادي، ثم عاصمة لولاية صيدا، فلا بد أن يفرز هذا الوضع مجموعة من المبادىء والقيم الاجتماعية، تحرص على الشكل والمظهر دون الجوهر، وهو الأمر الذي يكشف عن نفسه باهتمام الأمراء والولاة وكبار مساعديهم بمراسم الديوان، وعنايتهم الفائقة بزينة مواكبهم وفخامتها، هذا فضلاً عن اناقة ملابسهم وكسوة خيولهم. فقد كان لكل فئة في المجتمع ملابس

خاصة بها، لا يسمح لغير أفراد هذه الفئة بارتدائها، فقد كانت ملابس العامة خالية من الزخارف والزينة، التي اقتصرت على ثياب الحكام والقضاة والفقهاء من أرباب العمامة والتجار وأمثالهم.

وكانت عمليات تصنيع القماش في مراحله المختلفة تتم في سوق الحاكة، وحددت المصادر موقعه بالقرب من المحكمة[١١٣]، وأطلق اسم الحائك على من يقوم بهذا العمل، وكان النسج يتم بواسطة أنوال يدوية، وكان الصناع ينقسمون إلى قسمين، قسم يعمل بالأجرة لدى غيره من أصحاب الورشات الصغيرة، والقسم الآخر يعمل لحسابه، وكان القسم الأخير ينقسم بدوره إلى فئتين: فئة تأخذ الغزل من الناس لكي تنسجه لهم لقاء أجر معلوم، وفئة تشتري الغزل، وتنسجه وتبيعه أثواباً جاهزة. أما صناع الحرير فقد عرفوا باسم «الحريري» وانقسموا إلى عدة فئات، قسم يقوم بحل شرانق الحرير، وتحويلها إلى خيوط يبيعونها غزلاً، لمن يطرز به، والبعض الآخر ينسجونه ويبيعونه أثواباً، على حين كان البعض يصنع منه الحاشية التي تستخدم في صناعة الملابس، والبعض الآخر يمزج مع الغزل وثوب الطرح لإكسابها رقة الملمس، ونعومة وليونة تتفق مع استخدامها كغطاء للرأس، والكتفين[١١٤].

ويتصل بحرف صناعة الملابس حرفة التطريز، ويقال لمن يقوم بها «مطرز»، وهو من يقوم برسم الأشكال الزخرفية على أثواب القماش حسب رغبة الزبون، وبعدها يقوم بتطريز خيوط من الذهب والحرير الملون على الرسومات التي على القماش[١١٥].

وكان الغزل من عمل النساء في المنازل، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن ما كان يجري في سوق الغزل التي لم تحدد المصادر مكانها[١١٦]، إنما بيع الخيوط شللاً.

ويتصل بصناعة الملابس أيضاً، حرفة الصباغة، ويقوم بها «الصبّاغ» وهو فن قديم في بلاد الشام، وليس من أحد يجهل شهرة الأرجوان الذي كان يصبغ فيه الحرير على الشواطىء الفينيقية، ثم اشتهر بعده الصبغ الدمشقي في سائر الأقطار، لثبات ألوانه ولطافة لمعانه[١١٧]، إلى حد أن نجاح الصناعة القطنية الفرنسية اعتمد، ولمدة طويلة، على خيوط القطن المصبوغ في الشرق، والذي كان يصدّر الجانب الأعظم منه عن طريق ميناء صيدا، فقد كان من السهل على الفرنسيين، تعلم طريقة الغزل والنسيج، أكثر من معرفة فن الصباغة المعتمد في الشرق[١١٨].

وكان هناك عدة طرق لتثبيت الألوان على المنسوجات، ومع كل منها، ينبغي أن تكون المنسوجات نظيفة منقاة بالمواد المعدة لإعطاء الألوان المناسبة. فلذلك تبيض المنسوجات بالكلور قبل تلوينها، سواء أكانت من الكتان أو من القطن، وإن كانت من الحرير أو القطن، تبيض بالماء المغلي، وماء الصابون، أو بخار حامض الكبريت، ثم تشبب بالشب الخالي من الحديد. ومما يثبت الألوان على الأقمشة خلات الالومين، بأن يوضع عليها خل الالومين ثم تترك لمدة ساعات في محلول الشب، ثم تجفف وتغمس بعد جفافها فيما يراد التلوين به، أي في الماء الذي وضعت فيه المادة الملونة، وتغلي على النار بحسب ما تقتضيه الصناعة[١١٩].

ولقد تواجدت في مدينة صيدا أماكن لصباغة الأقمشة على ألوان متعددة حسب الطلب، فصبغوا الخام الأزرق والأقمشة الحريرية، وخيوط الغزل بألوان الأحمر والأصفر والذهبي وغيرها، كما صبغوا بعض أصناف القماش باللون الأسود[١٢٠] وذكرت مصادر تاريخ صيدا، عن وجود أربع مصابغ: اثنان في باب البلد التحتاني، من بينهما واحدة ملك بني زهرة، ومصبغة في محلة باب السوق، ومصبغة بالقرب من حارة المأذنة[١٢١]. ولقد تحول لقب «الصبّاغ» في صيدا من أفراد يعملون في حرفة الصبّاغة إلى اسم عائلة الصبّاغ الصيداوية.

ومن الحرف المتصلة بتصنيع الأقمشة والملابس، حرفة العقادين، وكان لهم سوق خاصة إلى الشمال من سوق الصاغة الفوقاتية إلى الشمال من خط الفرنج[١٢٢]، وكان يجري في هذه السوق تصنيع خيطان الحرير والصوف والقطن إلى شرايط، منها ما كان يصنع على النول أو على دولاب السجق، كأنواع البرديات للنوافذ، ومنها ما كان يصنع باليد، وتكون من

الحرير الملوّن كالبنود للأسلحة، من سيف وطبنجات، وخروجة وأزرار للصداري، ومنها ما يشتغل على دولاب الشغالات، وهو القيطان الحرير والقطن ويستعمل للصداري الجوخ. وعند إتمام الصانع، ويدعى «العقاد»، من صنع هذه الأصناف المذكورة يسلمها إلى المعلم ليبيعها في دكان لمن يرغب ذلك. وكانت هذه الحرفة مهمة، وتدر أرباحاً وفيرة لمعلمها، ومتوسطة لصانعها[١٢٣].

وارتبط بصناعة الملابس أيضاً، حرفة الخياط، فقد كان الناس يرسلون قطع القماش إلى الخياط لتفصيلها إلى ملابس على اختلاف مرغوب أصحابها، ويؤمر الخياط بجودة التفصيل، وأن تكون الخياطة درزاً لا شللاً، والابرة رفيعة والخيط على الخرم قصيراً، لأنه إذا طال انسلخ وضعفت قوته. وينبغي عليه الا يفصل لأيّ زبون ثوباً له قيمة، قبل أن يقدره، وإذا كان ثوباً له قيمة كالحرير والديباج فلا يأخذه إلا بالوزن، فإذا خاطه رده إلى صاحبه بالوزن بعد إنجاز عمله، وربما كان ذلك احتياطاً من تعرض الزبون للغش، واستبدال الخياط الثوب النفيس بآخر رخيص[١٢٤]. وينبغي أن يكون ثوب الرجل سابلاً لأسفل من الكعبين، والا يكون في الثوب وسع خارق للغاية، أما النساء فيجب أن يكون الثوب واسعاً وسابلاً لأن ذلك في حقهن سنة وكمالاً[١٢٥]. وذكرت مصادر تاريخ صيدا عن وجود سوق للخياطين في المدينة، لكنها لم تحدد موقعها، كما لا يزال حتى اليوم توجد أسرة صيداوية يحمل افرادها اسم الخياط، وهذا دليل على توارث أفراد هذه الأسرة بحرفة الخياطة[١٢٦].

ويتصل بحرف صناعة الأقمشة والملبوسات حرفة بائعي الذراع، وهم من كانوا يقومون ببيع الاقمشة والمنسوجات بالذراع، وكانت لهم سوق خاصة تدعى «سوق الذراع»، حددت المصادر موقعه شمال خط الفرنج[١٢٧].

حرف صناعة النجارة

واستفاد الصيداويون من وفرة الأخشاب في المرتفعات الجبلية اللبنانية، وانتشرت في المدينة الحرف المرتبطة بصناعة النجارة[١٢٨]، ولم يكتف الصنّاع في منجوراتهم بأخشاب بلادنا ورغم كثرتها، بل كانوا يستوردون ايضاً من الخارج، ويعتمدون على خشب الجوز والزيتون والدردال والصنوبر والسرو. فصنعوا منها الصناديق، وما يلزم المنازل من أبواب وخزائن للثياب، ومقاعد، كما صنعوا ايضاً ما يحتاجه الفلاحون من أدوات في عملهم، كالمحاريث والمجارف والواح درس الغلة والنورج، وكانت هذه الحرفة تدر على أصحابها أرباحاً جيدة ويعتاش منها أناس كثيرون[١٢٩]. وتواجد في صيدا سوق خاصة بالنجارين، لم تحدد لنا المصادر موقعها[١٣٠]، ولكن مراجعة خرائط المساحة لباطن مدينة صيدا، تبين لنا أن سوق النجارين، كانت تتقاطع مع الجزء الجنوبي لكل من زقاق الدباغة وسوق الخدرية.

وارتبط بحرف صناعة النجارة حرفة «الخرّاط»[١٣١]، وهو من كان يقوم بخرط العود والخشب بسائر أنواعه بآلة مخصصة لهذا الغرض، فكان الخرّاطون يصنعون برامق الدرابزين والكراسي المتنوعة من مختلف الأحجام، وأجران الثوم وايدي الكبة وأنواعاً اخرى عديدة[١٣٢].

كما ارتبطت بحرف صناعة النجارة حرفة صنع القباقيب[١٣٣]، ويطلق على صانعها «قباقيبي» وهي حرفة كانت رائجة للغاية، نظراً لكثرة الطلب على القباقيب، حيث كان شائعاً استعماله للحمّام.

ومن حرف صناعة النجارة حرفة صناعة السفن الشراعية[١٣٤]، ولقد أتقن ابناء صيدا هذه الحرفة، بحيث صار يقصد المدينة كثير من أبناء الثغور الشامية للحصول على هذه السفن.

حرف صناعة التعدين

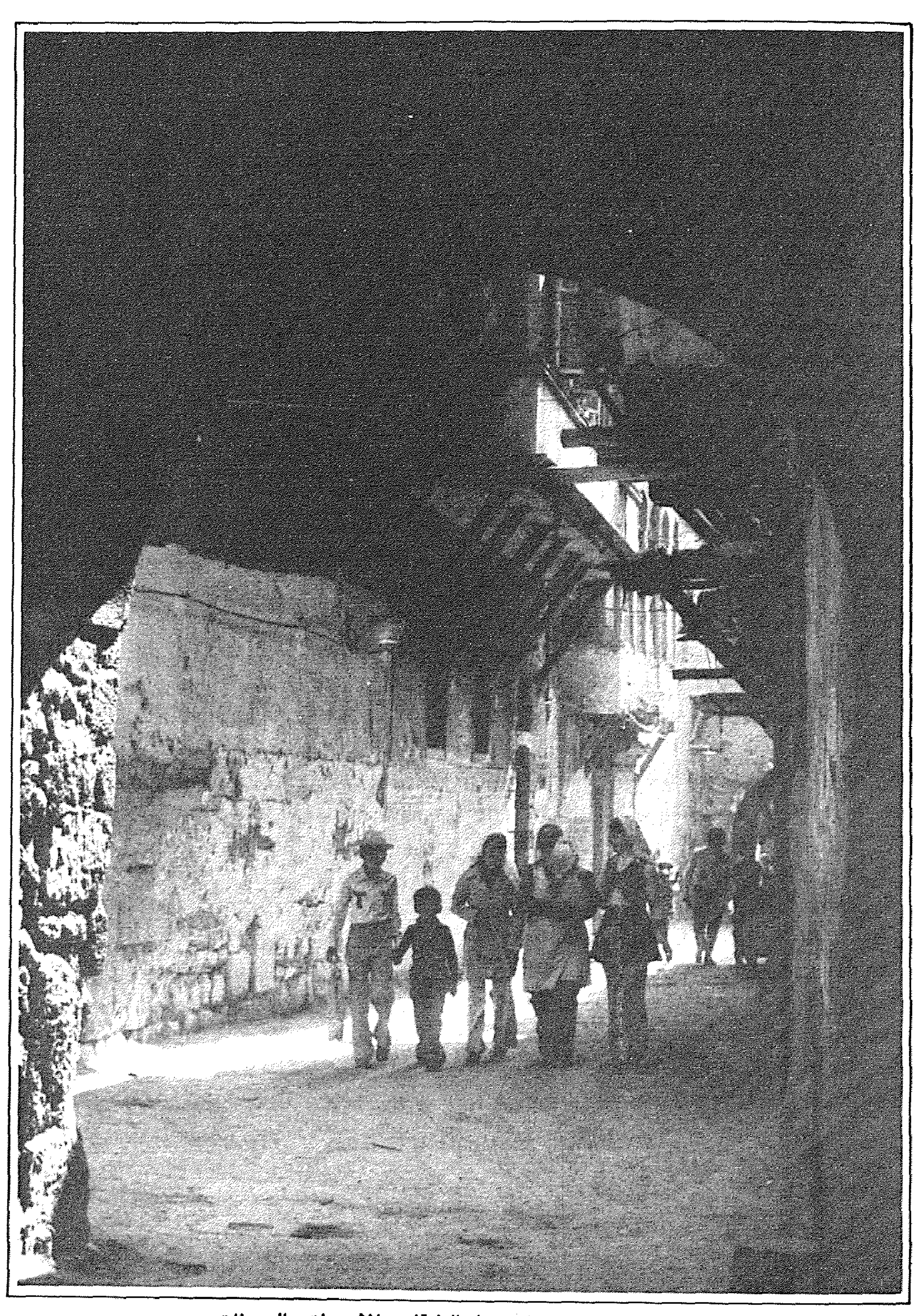
وقامت في سوق الحدادين حرف صناعة التعدين، وهي من الصناعات القديمة العهد في صيدا، تعود إلى الألف الرابع ق. م، فإلى الصيدونيين يعود الفضل في تعدين مناجم الذهب والفضة، وفي شغل النحاس والحديد، التي قدموها كضرائب عينية في عهد الآشوريين. فإذا تفحصنا الأثريات التي وجدت داخل النواويس التي عثر عليها في صيدا، لاحظنا أن كثيراً من

المصنوعات المعدنية المستعملة آنذاك كانت من النحاس، وبأن استعمالها إنما كان في النطاق الذي عرفه أجدادنا الأوائل، من أدوات للقتال والدفاع عن النفس، أو لحرث الأرض، أو الأواني المنزلية كالكؤوس والقوارير، وأثاث منازل فضية ونحاسية، ومسامير ونعال[١٣٥]. وذكرت الوثائق الفرنسية لعام ١٨١١ عن إجادة الصيداويين لصناعة الأسلحة[١٣٦]، من سيوف وما شابهها، ويسمى صانعها «السيوفي» والسكاكين، ويسمى صانعها «سكاكيني» وهو اسم عائلة موجودة في صيدا حالياً وصناعة الأواني النحاسية المنزلية[١٣٧]، وذلك بسكب النحاس في قوالب مخصوصة كالهواوين وخلافها، حسب طلب المشتري، وكان يطلق على من يقوم بهذا العمل «السكّاب». وطرق صفائح النحاس وتصنيعها طناجر وأطباقاً للغسل، والمصافي والمقالي، مع جميع ما يلزم للطبخ من كفكير وكبجات وغيرها من الأواني النحاسية، وكان بعض الصناع، ويسمى «النحاس» يطرِّقها على حسب طلب المشتري مقابل أجرة معلومة على ذلك، في حين كان أغلب النحاسين يطرقونها على حسابهم ويعلقونها في دكاكينهم، ويبيعونها لمن يرغب في مشتراها، وهي حرفة هامة كانت تدر أرباحاً وفيرة على أهلها[١٣٨]، وقد راجت في المدينة بحيث طبعت اسم اسرة حتى غدا لقباً لها، فأسرة النحّاس من الأسر الصيداوية المعروفة في أيامنا هذه.

ويتصل بحرف صناعة التعدين حرفة «النقاش»[١٣٩]، وهو من ينقش الأواني النحاسية من طاسات وشماعدين والصواني والفوانيس وغيرها، فيملؤن الأواني بالزفت كي لا تتعوج عند النقش، وينقشونها بازميل من حديد، وفقاً لرغبة صاحبها، رسوم الطيور أو الورود أو الأشجار أو الحيوانات[١٤٠].

وأدّى توفر الأدوات النحاسية المنزلية، إلى ضرورة إزالة الصدأ الذي قد يتراكم عليها، ويسبب إلحاق الأذى لمن يستخدمها، وهذا من عمل «المبيّض»، الذي يقوم بتبييض تلك الأواني، وذلك بتحميتها على النار، وطليها بالقصدير والنشادر، ويقلب الوعاء سريعاً حتى يصيب القصدير كل جانب من باطن الوعاء، ويتكرر ما تقدم إذا كان التكرار لازماً[١٤١]. ويتقاضى «المبيض» أجره عن هذا العمل، بحسب قيمة القصدير المستخدم، ورخصه وغلائه، وكانت هذه الحرف تدر على أصحابها أرباحاً متوسطة[١٤٢]. وأشارت مصادر تاريخ صيدا، عن وجود دكان «المبيّض» في باب البلد التحتاني[١٤٣]، وعن وجود دكان آخر خارج المدينة، في سوق البياطرة[١٤٤].

ومن الحرف الصناعية المرتبطة بالتعدين، حرفة صياغة الذهب والفضة، وهي من الصناعات القديمة التي اجادها الصيداويون منذ الألف الرابع ق.م.، ومما يثبت ذلك الأثريات النحاسية من عقود وأساور التي عثر عليها في داخل النواويس التي اكتشفت في منطقة صيدا[١٤٥]. وذكرت مصادر تاريخ صيدا عن وجود سوق مختصة بحرفيي هذه الصنعة، وحددت موقعها شمال غرب سوق الأساكفية، بالقرب من خان الأرز، كما ذكرت سوقاً أخرى مكملة لها تدعى سوق الصاغة الفوقانية[١٤٦]، وفي هاتين السوقين كان يصاغ الذهب والفضة، وتفنن الصنّاع بتصويرها، ووضع الأحجار الكريمة عليها، فصنعوا الحلى والمجوهرات[١٤٧]، من عقود وشكلات، وعصائب الجبين تتدلى منها قطع النقود الصغيرة[١٤٨]، وأقراط ذهب مزينة بالدر والياقوت، والعقود والشكلات والكردانات[١٤٩] المشنشلة التي تغطي النحور، والقلائد والدمالج، والأطواق والخلاخيل والأساوير في أشكال كثيرة[١٥٠]، وأحياناً كانت الحلى تصاغ من النحاس، وتطلى بالفضة، أو تصاغ في الفضة، وتطلى بالذهب إيهاماً بارتفاع أثمانها[١٥١]. وكان معظم من يتعاطى في حرفة الصياغة هم من النصارى، وأطلق على صائغ الحلى اسم «الصائغ». ولأن أكثر زبائن أرباب هذه الحرفة من النساء، فقد كان من المتوجب على الصائغ الا يتحدث مع امرأة إلا فيما لا بد منه مما يصنعه لها، أو يبيع، أو يشتري منها، ولا يتركها تكشف شيئاً عن معصمها أو ساقها أو غيرها لهذا الغرض، وإنما تقيس ما تحتاج إليه بخيط، وتأتي به معها، أو تأتي بسوار يقيس عليه أو غيره، أو تأخذ ذلك منه بحائل على يدها، وتقيسه لنفسها تحت



□ الحارات القديمة تفصلها ابواب الاحياء وتحتوي على الطرقات والمشربيات والبروزات.

إزارها، كما يتوجب عليه الا يصيغ شيئاً من الصور لأن ذلك محرم[١٥٢]. وينبغي أن تكون أكوار السبك مبنية على وجه الأرض، وغير مرتفعة، لكي لا يخفي ما يسبكه فيها صاحبه من فضة أو ذهب، وكذلك لكي لا يسرق من البوتقة شيئاً بالماسك، وإذا أراد صناعة شيء من الحلي، فلا يسبكه في الكور إلا بحضرة صاحبه بعد التحقق من وزنه، فإذا فرغ من شبكه، أعاد الوزن، وسلم الحلية لصاحبها. وكان بعض الصاغة يعمد إلى صياغة الحلي المزيفة، وبيعها إلى الناس على أنها حلي حقيقية، مما ساعدهم على تكوين ثروات باهظة[١٥٣].

حرف وصناعات متنوعة

وورث الصيداويون حرفة صناعة الفخار عن اجدادهم، وحافظوا على حسن صنعها، وهذه حرفة شعبية شديدة الالتصاق بحاجة اللبناني اليومية، فالجرار وسيلته لنقل الماء من العين، والأباريق هي افضل ما يشرب فيه الماء، كما أن بعض المواد الغذائية، كالزيتون والزيت، ليس هناك من وسائل تخزين لحفظها أفضل من خوابي الفخار. ولهذا السبب اعتنى الصيداوي، كغيره من أبناء الساحل الشامي، بصنع الجرار والخوابي والأباريق، وما يتبعها من قجج وأصص للأزهار وقدور وصحون ومعاجن وما إلى ذلك[١٥٤]، وتصنع هذه الأواني الفخارية من الطين، الذي يغسل بماء البحر المالح لتفصل عنه الحجارة والأوساخ الثقيلة، ثم يخلط بنوع من التراب سواء أكان طبيعياً أو معجوناً صناعياً، وبعد الخلط، يترك مدة، ثم يجفف حتى يتصاعد ما فيه من الماء. ثم يعجن بماء آخر، حتى يصير في قوام العجين، ثم يبسط على هيئة جلدة، ثم يطوى على نفسه ويكرر العمل هكذا مراراً، إلى أن يصبح معجوناً جيداً، لامتزاج المواد في بعضها والتصاقها[١٥٥]، ويتوصل الصانع إلى الشكل المطلوب بواسطة دولاب يدار بالرجل، وتستعين اليدان على قولبة المعجون الطري إلى جرة أو إبريق، ثم يجفف لمدة اسبوعين في ساحة واسعة معدة خصيصاً لتجفيف الفخار فيها بعد صنعه، قبل خبزه في فرن قديم يستوعب الكثير من الحطب، وعدة أيام من الحرق المتواصل لإنجاز العمل[١٥٦]. ونظراً لضرورة الخبرة في صناعة الفخار، وربما حرصاً من أفراد هذه الصناعة على حصرها بأسرهم فقط دون غيرها، فإننا نلاحظ تخصص أسرة صيداوية واحدة في صناعة الفخار، ومن الأسر التي ذكرتها المصادر في هذا المجال، أسرة الفاخوري، التي امتلك عدد من أفرادها الفواخير، ومنهم يوسف الفاخوري، والحرمي حني بنت يوسف الفاخوري الذمي، وأيوب الفاخوري، وطبوش الفاخوري، ولا تزال هذه العائلة موجودة في صيدا إلى الآن كما احتلت صناعة الفخار مكانة بارزة في حياة المدينة، إلى حد تسمية محلة باسم محلة الفواخير، وحددت المصادر موقعها جنوبي البحر المالح[١٥٧].

وأجاد الصيداويون حرفة صناعة الصابون، وكان يصنع بخلط كميات متناسبة من مسحوق الكلس والقلي، وهو نبات صحراوي يحرق في حفر خاصة ويأتي به البدو، وتوضع المقادير اللازمة في أوعية من خشب أو أحواض مبنية في مكان مرتفع، مصنوع لها ميزاب، إذا فتح يصب في جرن مكلس مصنوع لهذه الغاية. ثم يغمر المسحوق على ثلاثة قراريط بماء ساخن، ويحرك داخل الماء، ويترك منقوعاً هكذا اثنتي عشرة ساعة، ثم تنزع سدادة الميزاب، فيسيل منها المحلول إلى الجرن الذي تحته، حيث يجري حفظ هذا السائل وحده.

ثم يوضع جزء من السائل المستحضر في قدر كبيرة، يكون في قعرها أنبوبة مثلمة ملتحمة، قطرها ٦٨ ملم، وهي مثل الحنفية. فيسخن هذا السائل تسخيناً متوسطاً، ثم يصب عليه من الزيت شيئاً فشيئاً، ثم تقوى الحرارة حتى يغلي ما في القدر، حيث يتخذ السائل كله منظر المستحلب، ثم يصب أيضاً من الزيت والسائل شيئاً فشيئاً على التعاقب. ويتوجب في أثناء هذه العملية أن يحرك المزيج بصورة دائمة للحيلولة دون انفصال الزيت من الماء، وخلطهما خلطاً تاماً، حتى يتشبع الزيت، ويكمل تكوين الصابون الذي يتجمع، ويطفو على سطح السائل. وفي هذه الأثناء تترك النار حتى تضعف، ومتى ضعفت تفتح حنفية الشوكة ويستفرغ

منها الماء كله، ثم تغلق، فيصب على الصابون من السائل الأول المستحضر الذي سبق وأشرنا إليه، ثم تقوى النار، ويستمر الطبخ إلى أن ترتفع نسبة الماء الصابون فيه، ويطفو الصابون كله على سطح السائل، فتفتح الحنفية، ويستفرغ منها الماء كله، وبذلك يكون الطبخ قد صار كافياً، فيترك القدر إلى أن يبرد قليلاً، ويفسخ عنه الماء الذي بقي متحداً على دون لزوم. فيرفع الصابون من القدر بمصفاة، ومنها يصب في صناديق خشبية قوية، ويستحسن أن يصب في غرفة تسمى «المبسط» أرضها مفروشة بالكلس المنخول، تكون عادة في الطابق الأول، حيث يعرض على الشمس، لكي يجف بعض الجفاف، حيث يقطع إلى ألواح تؤخذ لتصف على بعضها لتصير على هيئة أعمدة هرمية الشكل، وتترك هكذا إلى أن تيبس، وهكذا تنتهي العملية[١٥٨].

وكانت هذه الصناعة تنحصر في مؤسسات تملكها الدولة[١٥٩].واشادت الوثائق الفرنسية بنوع الصابون الذي كان يصنع في صيدا «يصنع في هذه المدينة الصابون الأبيض الذي تستفيد منه مرسيليا، حيث يعاد تذويبه ثانية نظراً لكميات الزيت الوفيرة التي يحتويها»[١٦٠]. وأطلق على صانع الصابون وبائعه «الصبّان» في حين سمي المكان الذي يصنع فيه بالمصبنة، وذكرت وثائق المحكمة الشرعية في صيدا، أنه كان يتواجد في المدينة خمس مصابن، وأنه نسبت حارة إلى مصبنة فيها هي حارة المصبنة، وما ذلك إلا دليل على اشتهار هذه الصنعة في المدينة، وهذه المصابن هي التالية: مصبنة في محلة باب السوق، ومصبنة في الشارع في محلة باب الفوقاني، ومصبنة في حارة الموارنة، ومصبنة في محلة جلال الدين، ومصبنة بني حشيشو[١٦١]، وهذه الحرفة كانت من الحرف الرائجة في ذلك الوقت، وكانت تدر عليهم أرباحاً وفيرة، كما نظر إليها الناس نظرة احترام[١٦٢].

ولعل أسرة الشمّاع المعروفة حالياً في صيدا، إنما هي في الأساس اسم لأفراد تعاطوا حرفة صنع وبيع الشمع في المدينة، ثم مع الوقت غلب اسم الحرفة فغدا اسماً لهم، خاصة وأن الشمع كان من الحرف التي يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية آنئذٍ، إذ كان استخدامه رائجاً للحاجة إليه إلى جانب القناديل للإضاءة، وكذلك للزينة في المناسبات والاحتفالات الدينية والاجتماعية والرسمية. ويستخلص الشمع من شحم الغنم والبقر، أو من دهنهما بعد تذويبهما وإزالة ما يطفو عليه من الغثاء والغشاء، وأفضل الشمع ما كان مستحضراً من شحم الغنم ودهن البقر معاً، على ما يستحضر من واحد منهما فقط، وذلك لأن الشحم يزيد صلابته والدهن يضاعف نوره لزيادة المواد الزيتية فيه على ما في الشحم[١٦٣].

ومن الحرف التي عرفتها مدينة صيدا، حرفة الحبّال، وهو من كان يقوم بصنع الحبال، بسائر أصنافها، كالمرس والخيوط والمصيص، وكانت لهم سوق خاصة لصنعها وبيعها، يدعى سوق الحبال، لم تحدد لنا المصادر مكان هذه السوق بالضبط[١٦٤]. ونظراً لأهمية هذه الصنعة للحياة الحضرية والبدوية في آن معاً، فقد كانت رائجة جداً، ويستفيد منها أيضاً غير صناعها من تجار، وسوقه[١٦٥].

حرف الخانات

واقتضى النشاط الاقتصادي الذي عرفته مدينة صيدا ضرورة وجود خانات، وكانت مراكز خدمات وتسويق وإنتاج معاً، فقد شيدت هذه الخانات على طراز يؤمن راحة المسافرين ويحافظ على بضائعهم، فاشتملت على حوش يتوسط البناء تربط فيه الخيول، ويحيط بالحوش بناء من طابقين، يتألف الأرضي منهما من قسم يطل على الصحن وتوضع فيه البضائع، وقد يضم قسماً آخر يشرف على الشارع ويؤجر حوانيت للتجار. أما الطابق الثاني، فيقيم فيه التجار والمسافرون، وتمتاز الخانات بفخامة مداخلها وروعة واجهاتها. كما ألحق ببعض الخانات حمامات عامة لاستحمام النزلاء المسافرين، ومسجد خاص يقع في وسط الحوش، في حين زود خان الفرنج بكنيسة صغيرة يمارس فيها نزلاؤه الفرنسيون عباداتهم الدينية بحرية تامة. كما كان للخان وظيفة حرفية ككل الأسواق الحرفية، فتُصنع وتُباع فيه المنتجات الحرفية المختلفة، كما ضمت الخانات مستودعات بخزن البضائع المنتجة والمستوردة، وقد يختص الخان بسلعة من

السلع يسمى باسمها (خان الدباغة وخان الأرز)، وقد يحمل اسم صاحبه (خان العدوي)، او قد يحمل اسم المحلة الموجود فيها (خان الكنان)، او جنسية السكان الذين يقيمون فيه (خان الفرنج).

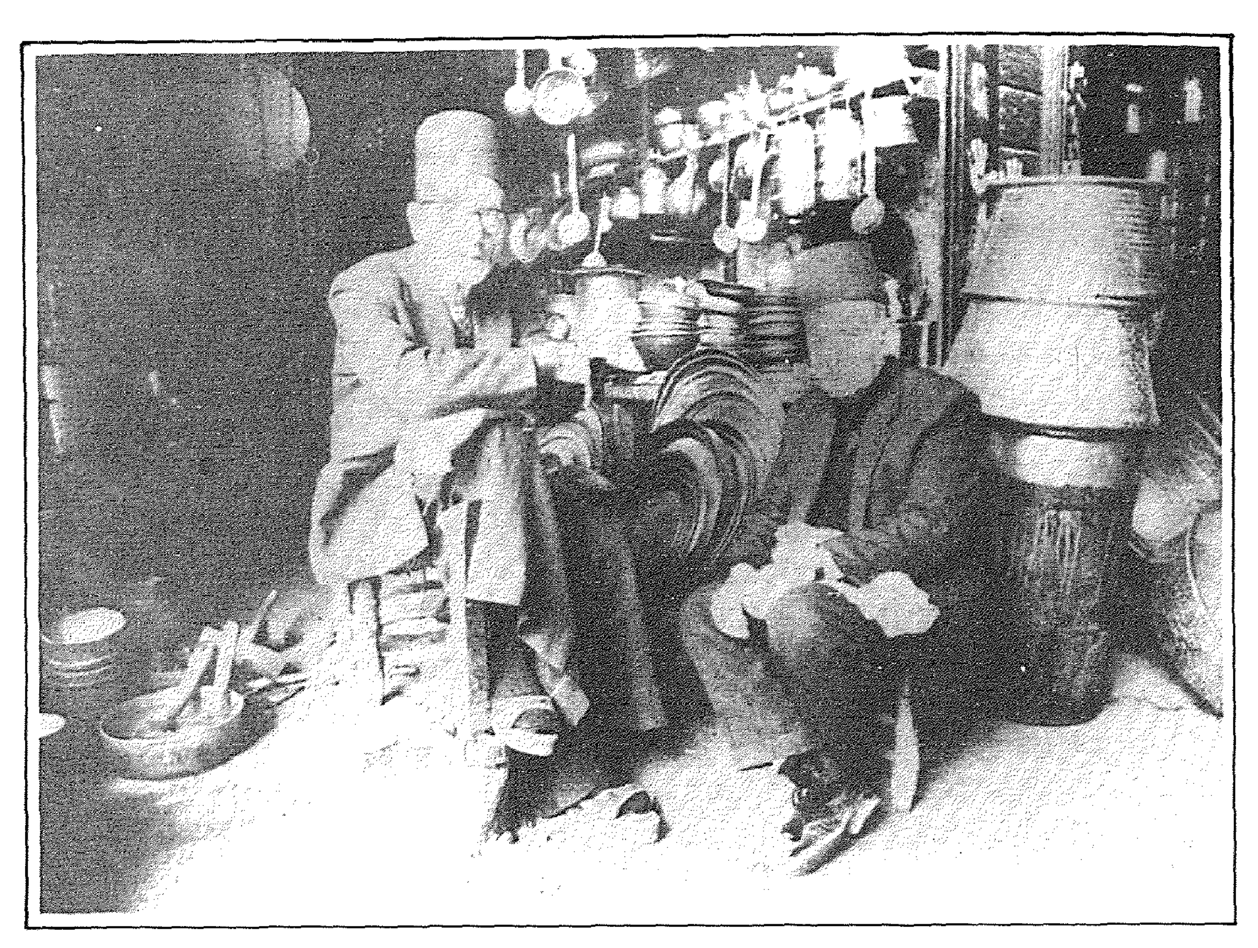
ومن أسماء الخانات التي كانت متواجدة في صيدا، يمكن أن نستدل على جوانب من أوجه النشاط الاقتصادي الذي كان يجري في المدينة، فأشهر هذه الخانات، خان الفرنج وحددت وثائق المحكمة الشرعية موقعه في ساحة البلد التحتاني(١٦٦)، وهو مقر إقامة التجار الفرنسيين في صيدا، الذين كان لهم وكلاء في عكا وطرابلس، يشترون للتجار المذكورين منتجات تلك البلاد، ثم يقومون بشحن تلك المنتجات إلى صيدا على زوارق محلية، حيث يعاد توضيبها في المدينة لتشحن إلى مرسيليا(١٦٧). وخان الحمص في محلة بوابة التحتا، وخان الأرز في المحلة نفسها. وذكر التاجر الفرنسي (ARUIEUX)(١٦٨) الذي اقام في المدينة أربع سنوات أنه كان يحيط بحوش الخان الأخير مخازن كبيرة لخزن الأرز. وخان الدباغة وكان أصغر خانات صيدا وأكثرها جمالاً وراحة، وذكر التاجر (ARUIEUX)(١٦٩) أنه ملاصق لخان الأرز، أي أنه في البوابة التحتا، وبأنه استأجر غرفاً في هذا الخان، واتخذها مقراً لسكنه، وإدارة أعماله بعيداً عن الضوضاء الموجودة في بقية الخانات. وتسمية هذه الخانات الثلاثة (حمص، وأرز ودباغة) بهذه الأسماء إنما يدل على تخصصها بتجارة هذه السلع الثلاث (الأرز والحمص والجلود المدبوغة)، وعلى أنها كانت تلقى رواجاً في البلاد. كما تواجد أيضاً ثلاثة خانات أخرى هي خان العدوي في محلة الملاحة، وخان الكنان في محلة الكنان، ويحده البحر غرباً وشمالاً والبرج القائم في نهاية السور الجنوبي غرباً، وخان اليهود في حارة اليهود(١٧٠) وتسمية الخان الأخير بخان اليهود، ووجوده في الحارة المخصصة لسكنهم، ووجود شارع يحمل اسم شارع حارة اليهود، إنما هو دليل على الدور الاقتصادي الهام الذي كان يلعبه اليهود في حياة المدينة، علماً بأن هذا الحي الخاص باليهود، كان منفصلاً عن بقية احياء المدينة، يقفل باب الحي عند المساء، ويسلم المفتاح إلى القاضي أو إلى آغا القلعة(١٧١).

وكأكثر الخانات كانت خانات صيدا إما خاصة، شيدها أناس بدافع الربح المادي، أو تكون وقفاً يعود ريعها للمساجد، أو للحرمين الشريفين، وكانت تدار من قبل صاحبها (صاحب الخان، خانجي)، أو من قبل أناس يعملون بالأجرة (ناظر، معلم، متولي وكيل)، أو من قبل مستأجرين للخان (ضامن، مستأجر)، وكانت هذه الخانات تؤجر قاعة قاعة لمستأجرين مختلفين. وكان يساعد مستثمر الخان في عمله، وفي تأمين النشاطات الاقتصادية التي كانت تجري في الخان، عدد من طوائف الحرف من ابناء البلاد، فكان هناك بوابون وقبانون وحمالون وسائسون وبياطرة، وهؤلاء كان عملهم نهاراً، أما في الليل فيكلف حراس مختصون (حارس، خفير، عسس) لحراسة الخان ومساعدة السلطة(١٧٢).

أطلق لقب «البوّاب» على من يقوم بحرفة حفظ باب الخان وحراسته، كما يقوم أيضاً بمساعدة مدير الخان في تأجير الفرن، وحماية البضائع، ويساعد الدولة في جباية الضرائب، ويستوفي من كل من يشتري من التجار شيئاً مخصوصاً ليعتاش منه . كما كان هناك أيضاً فئة أخرى من البوابين تعمل لدى أمير أو ذوي جاه ومنصب كبير، فينظر إليه باحترام إكراماً للسيد الذي يعمل عنده، أو بواباً في اسطبل (آخور)، مهمته حفظ الدواب وغيرها، وهو دون الأول والثاني، لأن حرفته لم يكن ينظر إليها الناس نظرة احترام، بل كانت في نظرهم حرفة وضيعة(١٧٣).

ومن حرف الخدمات المرتبطة بوجود الخان حرفة القباني، وهو من يزن بـ «القبان» الأوزان الثقيلة التي تبلغ حدود القنطار بحيث لا يمكن وزنها بالميزان البلدي المخصص للأوزان الثقيلة، ويتقاضى «القباني» أجراً معيناً على حسب الوزن(١٧٤)، ولا يزال حتى الآن في صيدا عائلة تحمل اسم القباني.

ويتصل بحرف الخان حرفة العتال، وهم أشخاص أقوياء يتخذون مراكز لهم في الخانات، حيث يقومون بنقل البضاعة التي يأتي بها التجار من باب الخان إلى داخله، وكذلك نقل



□ صناعة الأواني النحاسية والصناع.

البضاعة التي يشتريها التجار من الخان إلى المكان الذي يقصده هؤلاء ويتقاضون عن كل طرد أجرة معلومة، على مقتضى بعد أو قرب المكان(١٧٥).

اما حرف السايس والبيطار، فسنتحدث عنها عند دراستنا للحرف المتعلقة بدواب الركوب، وانفرد خان الفرنج عن بقية خانات صيدا بوجود حرفيين من أبناء البلد غير متواجدين في غيره، مثل حرف: القواص والترجمان والسماسرة.

أطلق لقب القواص على من يقوم بخدمة القنصل الفرنسي الذي كان مقره في خان الفرنج، ويكون عادة طويل القامة ذا هيئة لطيفة، أميناً في عمله، مخلصاً للقنصل، يصاحبه ويتقدمه في الطريق، حيثما توجه، متقلداً سيفه، ومرتدياً ثوباً من الجوخ المزخرف بأنواع الشريط المقصب، ويستخدمه القنصل عادة في بعض مهامه الخاصة، ولا تزال حتى الآن في صيدا عائلة تحمل اسم القواص(١٧٦).

ولعب «المترجم» أو «الترجمان» دوراً مزدوجاً، فهو كان يقوم بدور ترجمان القنصل الفرنسي لدى السلطات العثمانية، وفي أغلب الأحيان كان يكلف من قبل القنصل بمهمات خاصة من قبله لدى السلطات المذكورة، حين يرغب القنصل تجنب الاجتماع بتلك السلطات، خشية أن تسيء إليه، كما كان يلعب دور الوسيط لدى التجار في تجارتهم، بعد أن يستأذن هؤلاء من القنصل أن يسمح للترجمان القيام بهذا العمل. فقد كان التراجمة يجيدون الترجمة من العربية إلى التركية، أو الفرنسية، ويكونون عادة من مذهب الروم الكاثوليك، ومما كان يرغب هؤلاء في هذا العمل، أنه كان يجعلهم تحت الحماية الفرنسية، فيتخلصون بذلك من ضريبة الخراج(١٧٧). كما كان القناصل في أمس الحاجة إليهم، عند اضطرارهم إلى اتباع أساليب غير شرعية، كي يتغلبوا على المصاعب التي يلاقونها في الشريعة الإسلامية، فإذا كلف الترجمان بحل قضية صعبة، عمل على تدبير حيل ناجحة وبذل نشاطاً

عظيماً، في سبيل هذه الغاية، وهنا تظهر مقدرة الترجمان وضرورة الحاجة إليه[١٧٨]. وكان الترجمان يتقاضى راتباً زهيداً ويحصل علاوة على ذلك على عمولة في الصفقات التي يتمها[١٧٩].

وإلى جانب القواص والترجمان، تواجد في خان الفرنج عدد من السماسرة من ابناء البلاد، وهؤلاء كانوا يتعيشون من المداخيل التي كانت تعود عليهم من نتيجة الخدمات التي كانوا يقدمونها للجالية الفرنسية. وهؤلاء السماسرة يكونون عادة من الروم والأرمن والموارنة واليهود. ولقد تواجد هؤلاء السماسرة نتيجة تجنب التجار الأوروبيين التعامل مباشرة مع ابناء البلاد المحليين، فقد كان لكل مؤسسة تجارية فرنسية في صيدا، سماسرتها، المكلفين بأن يبرزوا أو يعرضوا لأبناء البلاد البضائع المخزنة في المستودعات التي سلمهم الفرنسيون مفاتيحها، فيقومون بوزن هذه البضائع وتسليمها للمشترين[١٨٠]، اي يلعبون دور الوسطاء الطبيعيين بين الفرنسيين الذين يبيعون جملة، واصحاب الحوانيت الذين يبيعون تفاريق، كما هي حالة هؤلاء الآخرين بين التجار الوطنيين والمستهلكين. فقبل مباشرة أي تاجر فرنسي مهام عمله، كان عليه أن يظفر بثلاثة أشياء ضرورية: معرفة البلاد، لغتها، سمسار قدير[١٨١]. ويتقاضى السماسرة عادة نفقة مقدارها واحدٌ ونصف بالمئة من مجموع قيمة كل صفقة تجارية يعقدونها، ولكي يكون للعقود التجارية صفتها الرسمية، كان يجري عقدها عند باب الخان، امام أحد ضباط الوالي، الذي يتقاضى رسماً مقداره ١ ٪ من قيمة الصفقات التي تعقد امامه[١٨٢]. وللقنصل (هنري غيز) رأي في أهمية السماسرة للتجارة الفرنسية «إن تاجراً عنده سمسار قدير، يمكنه أن يجمع بين المقدرة الأوروبية والحيلة الشرقية». وهذا ما دفع الحكومة الفرنسية إلى السعي لدى السلطات العثمانية، من أجل منح هؤلاء السماسرة الامتيازات والحصانة الشخصية التي يتمتع بها التراجمة، فبمجرد دخولهم في خدمة التاجر الفرنسي، تفارقهم رعاية السلطان العثماني ويصبحون من رعايا قنصل فرنسا[١٨٣].

حرف المقاهي

وانتشرت المقاهي في باطن مدينة صيدا، وندر ان خلا شارع من وجودها، ويلاحظ أن هذه المقاهي تواجدت بصورة رئيسية، في منطقة الأسواق التجارية، حول خان الفرنج وفي المصلبية[١٨٤]، او ملاصقة تماماً للمساجد[١٨٥]. وكان المقهى عبارة عن غرفة مظلمة رديئة البلاط، تنتصب حولها مقاعد من الحجارة مفروشة بالحصير، وتنتشر في الغرفة عدة كراسٍ علو الواحدة منها خمس وعشرون سنتمتراً، يجلس عليها رواد المقهى في الداخل، وعلى الطريق العام، ويتواجد في المقهى موقد «أوجاق» عليه إبريقان أو ثلاثة أباريق للقهوة، وإلى جانبه طاولة تحمل ما يقارب دزينة فناجين مع صحونها النحاسية الصفراء، وإلى جانب الموقد تصف النارجيلات، وهي عجمية الأصل يدخن بها التنباك[١٨٦]. ويطلق «قهوجي» على مستثمر القهوة سواء أكان صاحبها أو مستأجرها، ويحتاج إلى عدد من الصنّاع لمساعدته في طبخ القهوة وإعداد النراجيل وتقديمها لمن يرغب الشرب بها، واجراء لسقي الماء، وتقديم قطعة نار لمن يدخن السجاير[١٨٧].

وهذه المقاهي، إما قد أقامها أشخاص بغرض الربح المادي، أو تكون وقفاً يعود ريعها للمساجد، وحملت إما اسم المحلة المتواجدة فيها، او اسم أصحابها، أو اسم لنشاط اقتصادي كان يجري فيها. وزودتنا وثائق المحكمة الشرعية بأسماء ومواقع المقاهي المتواجدة في الأسواق، وهي التالية: قهوة المعلقة في ساحة خان الفرنج، وقهوة الدلالين في محلة خان الفرنج، وقهوة نصار قرب محلة رأس السوق، وقهوة المصلبية وكانت تشتمل على وجاقين براني وجواني ومساطب، وهذا دليل على أن بعض روادها كانوا يجلسون في الخارج على الطريق العام والبعض الآخر في الداخل، قهوة مظلوم في سوق الأساكفية، وقهوة في سوق الخدرية، وقهوة بني الوثار في أواخر سوق اللحامين. وقرب الجوامع تواجدت المقاهي التالية: قهوة الجويدي، بالقرب من جامع البطاح، وهي وقف للجامع المذكور، وقهوة أسكي دالي، في محلة جامع البطاح،

وقهوة في المحلة نفسها، وقهوة النفاخ جنوبي جامع القطيشة، وقهوة الحنفي بالقرب من الجامع المذكور، وقهوة الجوهري في جنينة جامع البحر جنوبي الجامع، وقهوة الحاج نجد، غربي جنينة البحر(١٨٨).

وحملت إحدى المقاهي اسم طائفة حرفية كانت تمارس نشاطها فيها وهي طائفة «الدلالين»(١٨٩): الذين اختصوا ببيع حوائج الناس، ولا ندري هل البيع كان يتم في هذا المقهى، أم أنها فقط كانت مركز تواجد لهؤلاء الدلالين، يقصدهم إليها من يرغب في بيع شيء يخصه، وقد تكون الاثنين معاً، ذلك أنه كان هناك دلالون يقومون بنشاطهم الحرفي سراً، يقصدهم من يرغب في بيع عقار أو دار، فيطوف الدلال على من يرغب في الشراء من الأعيان في منازلهم وأماكن عملهم(١٩٠).

إضافة إلى زبائن النهار الذين كانوا يقصدون المقاهي للتسلية، فقد كان لهذه المقاهي زبائن أيضاً يقصدونها بعد الغروب، وبعد العشاء، يأتون إليها للاستماع إلى «الحكواتي»، وهي حرفة من يجيد حفظ الحكايات، وكان يلقيها عن ظهر قلبه أو من كتاب، كقصة عنترة والملك سيف وغير ذلك، وله في كل مقهى وقت مخصص لإلقاء هذه الحكايات، التي تتألف من مقدمة تعالج أمور مضحكة ونصائح، ثم يباشر بعدها في إتمام ما كان قدّمه في الليلة الماضية. لأن الحكواتي يقف في عقدة من القصة يكون المستمع متلهفاً لمعرفة نهايتها، وهذه مهارة من الحكواتي لتشويق الناس الاستماع إلى تمام القصة. ويتقاضى الحكواتي أجره عن ذلك بتقاسم نصف مدخول صاحب المقهى(١٩١)، ولا تزال حتى الآن إحدى الأسر الصيداوية تحمل اسم الحكواتي.

حرف الحمامات

ونظراً لافتقار منازل معظم الصيداويين لوجود الحمّامات، التي كانت قاصرة على منازل وقصور الأمراء، والحكام وكبار موظفي الدولة، والأعيان وكبار الأثرياء، فقد انتشر في المدينة عدد من الحمامات الشعبية، حتى تتيح للأهالي إمكانية الاستحمام ولو مرة في الأسبوع، تطبيقاً للسنن النبوية الداعية إلى الاغتسال قبل صلاة الجمعة.

ومن ثم كان الصيداويون، من جميع الفئات، يقصدون الحمامات العامة، حيث ينظفون أجسادهم، وينعمون بالحديث وتبادل الأخبار مع رفاقهم. ويلاحظ أن هذه الحمامات أقيمت قرب المساجد، وقد يكون القصد من ذلك إبراز أهمية الطهارة الجسدية قبل الدخول إلى المساجد، وكانت تخصص أوقات للرجال وأخرى للنساء والعائلات(١٩٢). ومما ينبغي الإشارة إليه، أن معظم هذه الحمامات كانت تبنى من أموال كبار الموظفين والأعيان والأثرياء لتكون أوقافاً جارية للإنفاق على ذرية الواقف، أو على أوجه النشاط الديني أو الثقافي أو المؤسسات مثل المساجد والزوايا والمدارس، والمكاتب (الكتاتيب المخصصة لتعليم الأطفال)، وما إلى ذلك.

وقد ارتبطت الحمّامات بالحياة اليومية، وبعض العادات الاجتماعية من عدة وجوه، فقد كانت الحمامات مثل الأسواق من مراكز تبادل الأخبار والأنباء والآراء، فتواجد الأهالي في هذه الأماكن العامة، كان يدفعهم إلى تمضية الوقت بالثرثرة حول شؤون الحياة، كما ارتبطت الحمامات ببعض التقاليد والعادات الاجتماعية في المجتمع الصيداوي، فقد كان من التقاليد السائدة آنئذٍ أن يتوجه العريس إلى حمام الرجال يصحبه إخوانه وأقاربه وأصدقاؤه الذين يشرفون على إلباس ملابسه، على حين تتوجه عروسه إلى حمام مخصص للنساء، وبرفقتها أهلها ومعارفها، حيث تزين(١٩٣). وينبغي غسل الحمّام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر مراراً في اليوم، وأن يدلكوا البلاط بأجسام خشنة لكي لا يلتصق به الصابون فيزلق الناس عليه، وأن تنظف الأحواض والقدور من الأوساخ المتجمعة من المجاري والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر مرة، لأنها إذا تركت أكثر من ذلك تغيّر الماء فيها من الرائحة والطعم، ولا ينبغي أن يدخل الحمّام مجذوم أو أبرص(١٩٤).

وهذه الحمامات عبارة عن فناء واسع يجلس فيه المغتسلون بعد الاغتسال، وقبله، لانتظار دورهم، ومن الفناء تتوزع غرف صغيرة للاغتسال، في حين يوقد للحمام من جهة خارجية(١٩٥). وأطلق لقب «حمامجي» على معلم الحمام سواء أكان صاحبه أو مستأجره، ويحتاج

المعلم إلى أشياء أخرى ضرورية جداً للحمام، هي عدة الحمام من: مناشف تختلف نوعيتها باختلاف المركز الاجتماعي للزبون، وإلى مدلك مهمته إخراج الوسخ بالكيس، وإلى مصوبن وهو من يغسل الزبون بالصابون والليفة، وإلى وقاد، وإلى ناطور لتقديم المناشف والثياب للخارج من الحمام(١٩٦).

وزودتنا الدراسات التي أعدت عن تاريخ صيدا بأسماء ومواقع الحمّامات التي كانت منتشرة في المدينة، وهي التالية: حمام الشيخ أو حمام الكينحيا بالقرب من المحكمة القديمة(١٩٧)، ويعود بناؤه إلى القرن السابع عشر، وحمام رأس السوق في محلة باب السوق(١٩٨)، بالقرب من مسجد بطاح، وعرف أيضاً باسم «سبع بنيات» لوجود سبع صنابير للمياه في داخله، أو لاعتقاد عامة الناس بوجود سبع جنيات تسكن الحمام. وقد تحول هذا الحمام إلى مخبز للخبز(١٩٩)، والحمام الجديد ويقع بالقرب من جامع السرايا(٢٠٠)، وقد أطلق اسمه على الحي الذي يتواجد فيه، وعلى شارع في هذا الحي(٢٠١)، ويعود بناؤه إلى القرن السابع عشر، وقد أمر بإنشائه مصطفى حمود. وحمام الورد ويقع قرب المدخل الشمالي للمسجد العمري الكبير ويعود بناؤه إلى العام ١١٣٣هـ /١٧٢٢ ــ ١٧٢٣م / ، وهو من اوقاف آل حمود(٢٠٢)، وأطلق على شارع اسم شارع حمام الورد(٢٠٣). وحمام الأمير ويعود تاريخ بنائه إلى عهد فخر الدين المعني الثاني، ولقد أزيل هذا الحمام بعد الاجتياح الإسرائيلي لمدينة صيدا، وهو تابع للأوقاف الإسلامية في دمشق(٢٠٤). ونميل إلى الاعتقاد بأنه الحمام الذي وصفه التاجر الفرنسي (ARVIEUX)(٢٠٥) «يوجد حمام كبير بالقرب من الخان، وهو جيد البناء ونظيف، ونستخدمه بسعر رخيص».

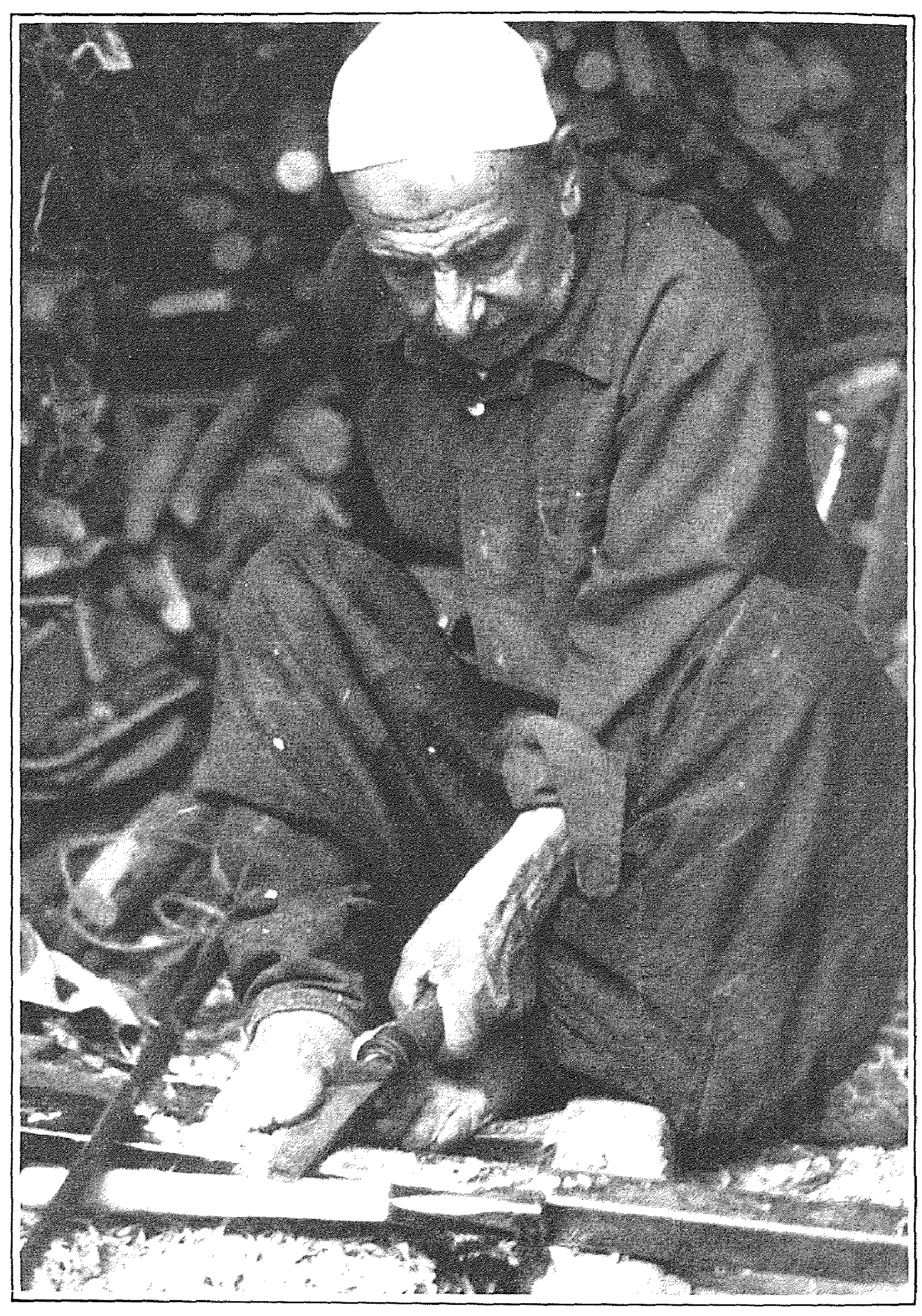
حرفة الحلاقين

وتمركزت دكاكين حلاقة الرأس والوجه في منطقة الأسواق، وبقرب الحمامات، فغالباً ما كان رواد هذه الحمامات يحلق قبل الاستحمام(٢٠٦)، ويعرف من يقوم بهذه الحرفة بـ «الحلاق»، وكان يتعاطاها المسلمون والنصارى واليهود) وأصحاب هذه الحرفة مرفهون في ملابسهم وهيئتهم مع نظافة المحل والبشاكير، واستعمال الروائح العطرية الفاخرة. وكان زبائن الحلاقين من مختلف طبقات المجتمع، كما لم يكن هناك تسعيرة ثابتة أو أجر متعارف عليه مقابل ما يقومون به، فكل زبون يدفع ما بوسعه وما يتفقُ مع وضعه الاجتماعي(٢٠٧). وزودتنا الوثائق الشرعية بمواقع أربعة دكاكين حلاقة، واحدٌ في خان الفرنج، وآخر، ملاصق للخان المذكور من الناحية الجنوبية يعرف باسم دكان الحمامي الحلاق، وقد يكون صاحبه قد حمل هذا اللقب لاستثماره حمام بالإضافة إلى دكان الحلاقة المذكور، ودكان حلاقة سفلي قهوة المعلقة قرب ساحة خان الفرنج، ودكان حلاقة بالقرب من حمام رأس السوق، ودكان حلاقة في أوائل سوق اللحامين(٢٠٨).

وبالإضافة إلى طائفة حرفة الحلاقين الذين كان لديهم دكاكين الحلاقة التي أشرنا إليها، وجدت طائفة من الحلاقين الفقراء يحلقون للفلاحين والفقراء، وهؤلاء لم يكن لديهم دكاكين، وإنما يطوفون في الأسواق والشوارع، حيث يقومون بحلاقة رؤوس الناس وتزيين وجوههم في الشوارع أيضاً.

وأطلق لقب «الحلاق» أيضاً على حرفيين ليسوا مختصين بالحلاقة بل عندهم معرفة بالفصادة(٢٠٩) والحجامة(٢١٠)، ولديهم آلاتها، وبعضهم الآخر لديه معرفة بالجراحة وآلاتها ومراهم ولصوق، وبعضهم عنده خبرة بختن الأولاد، ويطلق عليه أيضاً «المزين» فمن أراد ختن ولده يأتي بالمزين، فيختنه ويتعاهده بضعة أيام بتغيير اللصوق حتى يشفى. وله على عمله هذا مكافأة مالية يتوقف مقدارها على المكانة الاجتماعية للشخص، فيدفع الأغنياء الكثير ويدفع الفقراء القليل(٢١١).

ويستفاد من أسماء الأسواق الصيداوية آنئذٍ عن وجود حرفة «العتقجي» وهو من كان يقوم ببيع القديم من الملابس والآنية وغيرها، ولكن لم تحدد لنا الوثائق الشرعية موقع هذا السوق(٢١٢) في المدينة.



□ بيده وقدمه يصنـع تحفه خشبية.

الباعة الجائلون

وإلى جانب أصحاب الحرف الذين كان لهم مراكز ثابتة في الأسواق، عرفت مدينة صيدا آنذاك الباعة الجائلين، وهؤلاء إما كانوا من أبناء المدينة العاجزين عند فتح حوانيت باسمهم، وإما كانوا من أبناء القرى المجاورة الذين يأتون بمحاصيلهم الزراعية لتسويقها بأنفسهم في أسواق المدينة. فبعض هؤلاء كانوا يفترشون الأرض ببضاعتهم، على حين كان البعض الآخر يتجولون بما يحملونه من بضاعة في أسواق وأحياء المدينة.

فالباعة الذين كانوا يفترشون الأرض ببضاعتهم، كانوا يتخذون أماكن تتميز بكثرة العابرين منها مثل أبواب المدينة، أو بعض أسواقها التي تشهد اكتظاظا بروادها، وكان يطلق عليهم إسم باعة البسطة. وكان أولئك الباعة يبيعون مختلف البضائع والخضروات والفاكهة والخواتم والأساور وغيرها مما تتزين به النساء.

أما الصنف الثاني من الباعة المتجولين، فقد كانوا يطوفون في الأحياء والأزقة والشوارع، ينادون على ما معهم من بضاعة، قد تكون على دابة، أو في فرش أوقفه على رأسه، أو في سل حمله بين يديه[٢١٣].

حرف النقل

وفي مجال النقل والانتقال ما بين المدينة والعالم الخارجي، كانت الدواب من حمير وبغال وجمال هي الوسيلة الشائعة آنئذٍ، وبواسطة القوافل التي كانت الوسيلة الوحيدة المضمونة آنئذ. فانتشرت في المدينة مراكز تأوي إليها هذه الدواب، كما ازدهرت طوائف حرف اعتمدت في عيشها على امتلاك هذه الدواب، أو على تأمين الخدمات التي تحتاجها.

وفي إطار طوائف الحرف المرتبطة بالنقل والانتقال، ذكرت الوثائق الفرنسية حرفة الحوذي[٢١٤]، وهو من يكون عنده دواب ركوب يؤجرها لمن يرغب الانتقال من مكان إلى آخر، بأجر معلوم يتوقف مقداره على طول المسافة التي يرغب المستأجر ومدتها، وكان لهذه الدواب محطات خاصة في جوانب الشوارع الرئيسية والأسواق[٢١٥]. كما اشارت الوثائق الفرنسية إلى حرفة الجمال[٢١٦]، وهو من يبيع الجمال، ويبحث عنها، ويؤمن طعامها وشرابها، مقابل اجرة من أصحاب الجمال. كما أطلق لقب الجمّال، على من يستأجر الجمال بأجرة مخصوصة، للانتفاع منها بالتحميل عليها، وهذه الحرفة كانت في نظر الأهالي دنيئة[٢١٧].

ويتصل بالحرف المرتبطة بالنقل حرفة «المكاري»، الذي كان ينقل على دابته البضائع والسلع الزراعية والصناعية، ما بين مدينة صيدا، ومدن الولايات العربية العثمانية. كما كان يقوم بدور ساعي البريد، ويساهم في تنشيط التبادل التجاري[٢١٨]. واشارت الوثائق الشرعية إلى وجود مراكز في باطن المدينة لإيواء الدواب «آخور»، وتقديم العلف والاهتمام بها، الأول يدعى «آخور» سليمان باشا وحددت موقعه في المصبية قرب باب خان الفرنج الكبير[٢١٩]، والثاني كان في حالة خراب ويقع في ساحة دار الأمير بالقرب من الجامع الكبير[٢٢٠].

ويتصل بحرف دواب النقل حرفة «السايس»، وهو من يقوم بتنظيف الدواب وحسها ومسحها وتأديبها، وتنظيف محلها، وغسلها بماء حار عند الحاجة، ووضع العلف لها صباحاً ومساء، وتهيئتها للركوب عليها بوضع سرجها وعدتها، إذا أراد صاحبها الركوب عليها. وكان هناك أيضاً سائسون يعملون لدى كبار موظفي الدولة والأعيان، ويرافقونهم في سفرهم أينما توجهوا، فيسيرون خلف أسيادهم لتأمين ما تقتضي إليه الحاجة لسياسة الخيل[٢٢١]، ولا تزال إلى الآن في صيدا عائلة تحمل إسم السايس[٢٢٢].

ومن الحرف المرتبطة بحرف دواب النقل، حرفة «البيطري»، وهو من يقوم بوضع الحدوات لدواب النقل لصيانة قوائمها، كما يهتم بمعالجتها من الأمراض التي تنتابها. والبيطرة علم جليل وهي أصعب علاجاً من أمراض الآدميين، لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما ينتابها من المرض والالم، وإنما يستدل على عللها بالحس والنظر[٢٢٣]. ولذا يجب أن تتوفر فيمن يتعاطى البيطرة شروط معينة: كخفة الحركة وقوة

الذراعين وصحة النظر، وخبرة في أمراض الحيوان ووصف العلاج اللازم لها، ومعرفة بأمراض التناسل وغير ذلك من الأمراض[٢٢٤]. ويستدل من وجود سوق للبيطرة في مدينة صيدا، حددت الوثائق موقعه خارج أسوار المدينة[٢٢٥]، عن وجود عدد متوفر من البياطرة يتعاطون مهنة البيطرة، ولا تزال حتى الآن في صيدا عائلة تحمل إسم البيطار[٢٢٦].

حرف البناء والعمارة

وذكرت الوثائق الفرنسية أن بعض أبناء مدينة صيدا كان يعمل في حرف البناء[٢٢٧] والعمارة، فمنهم من كان يجيد بناء الجدران والأمكنة والمنازل والدور، ويقال له «معماري»، وكانت هذه الحرفة متنوعة، فمنها البناء بالحجارة المنحوتة المحكمة الوضع بالميزان المستقيم، ويتم البناء بالجص[٢٢٨] والكلس مع التراب والسماد الذي يعقد معها ويلحم، فيصبح الجدار كأنه جسم واحد. ومنها البناء باللبن (بكسر الباء)، وهو تراب مجبول بالماء ثم يجفف بالشمس، وبعد يبسه يبني به المعماري منازل الفقراء الذين لا قدرة لهم على البناء بالحجارة. وبعض البنائين يبني بالتراب وعلى الأخص المسمى بالدك، ومنهم من يبني بالتراب أو الرمل المخلوط بالكلس. وكانت هذه الصنعة رائجة، واعتاد الحكام اللجوء إلى أربابها للفصل في النزاعات التي تنشب في المدينة بين ملاكي المنازل، في قضايا: حدوث ضرر في الجدران أو في استحقان الطرق والمنافذ للمياه الجارية وغير ذلك[٢٢٩]. ويتعين على الصانع في حرف البناء والعمارة، أن ينصح صاحب العمل فيما هو يعمل له، وأن يوفر عليه المؤونة قدر الإمكان مع مراعاة شروط السلامة العامة، وأن يتجنب الإسراع في العمل لأن الغالب فيمن يسرع الإخلال بالعمل ويسبب العيب في العمل ونقص في الصنعة، كما أن البطء في العمل يضر بصاحب العمل، لأن الصانع لا ينجز إلا القليل. وإذا كان العمل مما يعمل بالطين والجير فعلى الصانع أن يتحرى اعتدال قدرهما في العادة، لأنه إذا أكثر من أحدهما ونقص من الآخر اختل العمل[٢٣٠].

ويتصل بحرف العمارة والبناء حرفة صناعة الجص، وكانت تتم في مكان خاص، تحرق فيه أحجار معينة لمدة معلومة، حتى تزول عنها الرطوبة، ويخلص لونها إلى البياض، ويدعى من يقوم بذلك «أتوني»، في حين كان يدعى «كلاس» من يقوم ببيعها كطلاء لتبييض جدران دور ومنازل الأغنياء وأسقفها، وكان يقوم بمهمة التبييض «الطرّاش». أما الفقراء من أصحاب المنازل، فقد عجزوا عن تبييض منازلهم بالكلس، فاستخدموا نوعاً من التراب الأبيض يدعى «الحواري»، وعرف باسم «الحوّار» من كان يقوم بمهمة تبييض المنازل بهذه المادة[٢٣١]. أما الولاة والحكام والأعيان وكبار الأثرياء، فقد حرصوا على تزيين جدران منازلهم، وزخرفتها بالرسوم والنقوش بالدهان الملون، وكان يقوم بهذه الحرفة الدهان.

حرف المياه

واعتمد الصيداويون على مياه نهر الأولي في الشرب، لكن هذه المياه لم تكن تصل إلى كثير من المنازل[٢٣٢]، فاعتمد هؤلاء على طائفة السقايين في تأمين حاجتهم من المياه، فكان افراد هذه الطائفة الحرفية يقومون بهذه الخدمة لقاء أجر معلوم. وذلك بنقل جرار الماء وقربها على أكتافهم أو حميرهم من نهر الأولي أو من السبل المنتشرة في المدينة، ثم يقومون بتفريغها في هذه المنازل التي اتفقوا مع أصحابها. ويتوجب على السقايين أن تكون القرب المستخدمة في نقل المياه من الجلود المدبوغة التي قد استحكم دباغها، ولا تعمل من جلد بغل ولا دون، وإنما من أديم مصري أو سلفة يمانية. وإذا كانت القربة جديدة يتعين على السقاء أن ينقل بها المياه أولاً إلى أحواض الطواحين والمعاصر ومعاجن الطين أياماً، ولا ينقل بها مياه الشرب، لأنه يكون متغيّر اللون والطعم والرائحة من أثر الدباغ والقطران، فإن زال التغيّر صار بإمكانه بيع الماء للناس للشراب والاستعمال! وأن يشدوا في أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس لإحداث جلبة من الدابة إذا عبرت الأسواق، فيحذر عنها الضرير والإنسان الغافل والصبيان[٢٣٣]. ويتعين على السقاء أن يأخذ

المياه من الأماكن العميقة وليس من تلك القريبة من البر، خشية أن يكون الماء متضمناً شيئاً من فضلات أو أنه عكر في التراب، فيطلع في ماء القربة فيتنجس ذلك كله، ثم يسكبه لإخوانه المسلمين فيتنجس به ثيابهم وأجسامهم وقوتهم الذي يعجنونه منه، وتبطل صلاة من تطهر به، فيضطرون إلى إعادة غسل ثيابهم وأجسامهم وإعادة صلاتهم، وتبديد قوتهم وغسل الأواني وغيرها. ويجب أن تكون القربة مملوءة تماماً، ومغطاة بغطاء طاهر كثيف ساتر لجميعها، ليسلم الناس من تلويث ثيابهم، لأن في ذلك إذية للمسلمين. وإذا دخل السقاء بيتاً، لسكب الماء، يجب ألا يجيل نظره في أرجاء المنزل وإنما في موضع سكب المياه، وأن لا يسكب في منزل فيه امرأة واحدة، وإن كانت لا تظهر عليه، وأن تكون يداه سالمتين من النجاسة والأشياء المستقذرة[٢٣٤].

ومن حرف الخدمات التي ارتبطت بالمياه، حرفة القنواتي، وهو من كان يشرف على توزيع المياه في المدينة، وتأمين وصولها إلى أماكنها، ولا يزال إلى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم القنواتي[٢٣٥].

حرف النساء

وتخصصت النساء في بعض الحرف، وهي في مجملها حرف تتعلق بالنساء من زينة ونظافة وتوليد، ولكن الميدان الذي كان تتم فيه ممارسة مثل هذه الحرف كان قاصراً على البيوت، فقد تواجدت في صيدا نساء عندهن معرفة ومهارة في صناعة التوليد، تعرف باسم «الداية»، وكانت مهمتها توليد الحامل وتتعهد الجنين والنفساء لمدة تقارب الأسبوع، وتتلقى أجرة، على ما قامت به، يتوقف مقدارها حسب المركز الاجتماعي لأهالي المواليد، كما تكرم من أقرباء المولود بالإكرامية المسماة «النقوط»[٢٣٦]. وأشارت الوثائق الشرعية إلى سيدة تدعى نسب الداية، وإلى منزل مارون الداية[٢٣٧]، وقد يكون ذلك دليلاً على احتكار هذه الأسرة لحرفة التوليد. وقد تلعب الداية في بعض الأحيان دور «الماشطة» التي تمشط الفتاة، وتلبسها ثيابها، وتزينها ليلة زفافها بأصناف الحلي والحلل[٢٣٨].

الحرف الزراعية

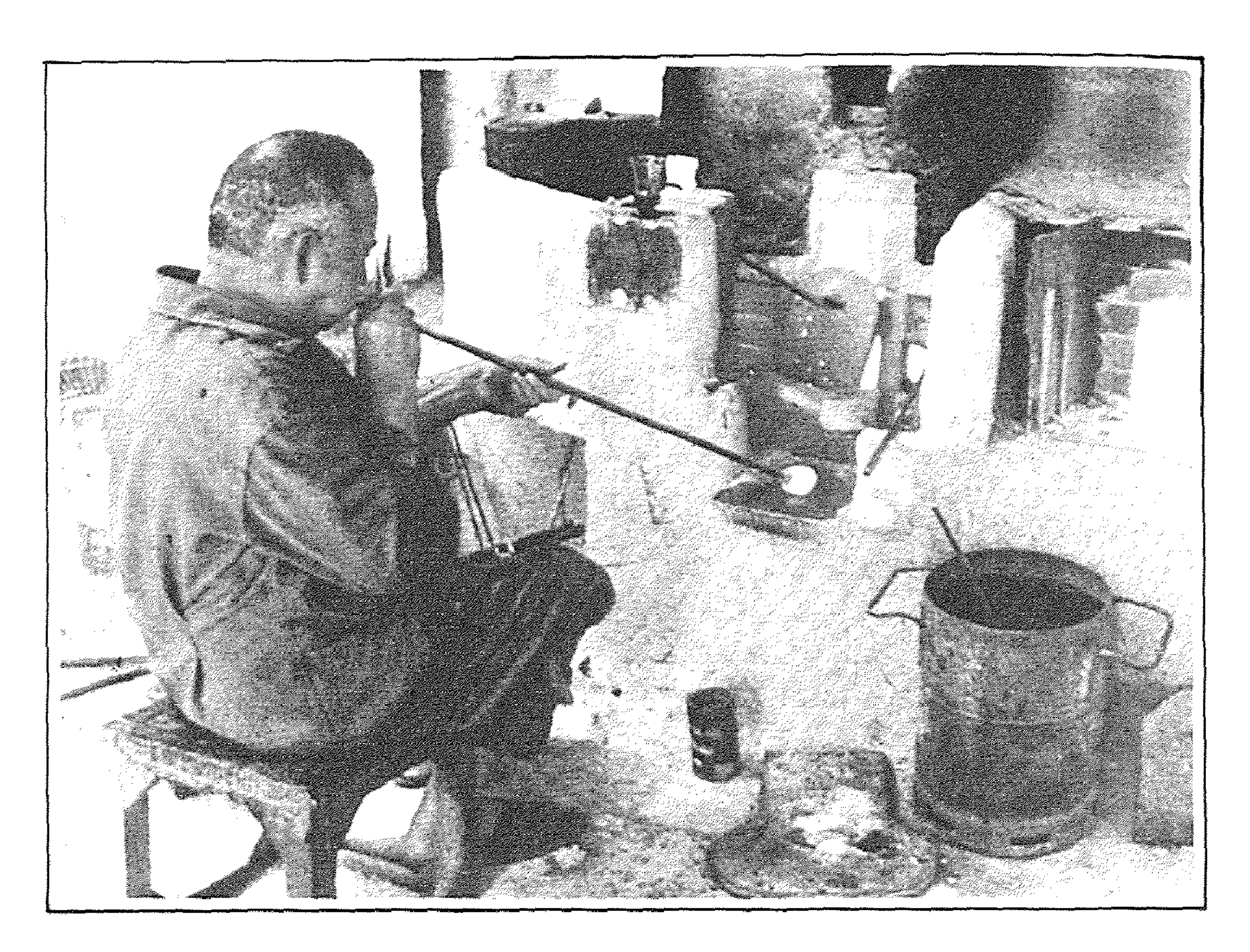
وإذا كان الجانب الأكبر من حرف الإنتاج والتسويق والخدمات الصيداوية قد تركز في الجزء الشمالي من المدينة، الممتد من المرفأ الشمالي وشرقاً حتى البوابة التحتا، وتمحور حول خان الفرنج، فقد غلبت الحرف الزراعية على أهالي الأحياء الجنوبية المقابلة من المدينة[٢٣٩]، فعملوا كفلاحين وبساتنة[٢٤٠] لدى بعض أبناء مدينتهم الذين كانوا يمتلكون مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في سهل صيدا[٢٤١]. وتميزت هذه الملكيات الزراعية بتنوع تربتها، وبأنها كانت موزعة بين أراضي زراعية مروية وأراض زراعية بعلية، كانت تستثمر بزراعة الخضار والفاكهة والغلال المتنوعة[٢٤٢].

ويتصل بالحرف المتعلقة بالنشاط الزراعي، حرفة الحرّاث، وهو من يحرث الأرض بالسكة، ويتقاضى مقابل ذلك مبلغاً معلوماً من المال يعتاش منه. وأطلق «الحصّاد» على من يحصد الغلال عند اشتداد حبها ويبسه، ويجعل له مستأجره مبلغاً معلوماً على حصيد الغلة[٢٤٣]. وأطلق «الزرّاع» على الحرفي الذي يستأجر الأرض من مالكها، ويتعهد بتقديم كل ما تحتاجه من خدمة، وتكاليف، مقابل الحصول على نسبة معينة من المحصول[٢٤٤].

ويتصل بحرف الزراعة حرفة «البستانجي»، وتطلق على من يتعهد بستان سواء كان مالكه أو مستأجره، فيقوم بالاهتمام بزراعته بالخضر في الفصول الملائمة لزراعتها، والعناية بأشجاره المثمرة، وعند نضوج المواسم، يأتي بالمحصول لبيبعه في المدينة[٢٤٥]. ولفتت انتباه الأجانب كرمة صيدا «لا يضاهي بطعمه وحلاوته»[٢٤٦]، فأجاد بعض أبناء المدينة حرفة «الزبّار» وهو من يقوم بتقليم أطراف عروق دوالي الكروم وأغصان الأشجار، ويعمل بالأجرة اليومية من الصباح حتى المساء[٢٤٧].

حرف خدمة الأسواق

وهذا النشاط الاقتصادي البارز الذي كانت تشهده أسواق وأحياء مدينة صيدا، كان يتطلب



□ صناعة الزجاج، أقدم الصناعات الشامية.

وجود طوائف حرفية، مهمتها تقديم ما تحتاجه هذه الأسواق من خدمات عامة، في مجالي النظافة والأمن الليلي. فقامت طوائف حرفية مهمتها تأمين هذه الخدمات العامة، وذلك عن طريق قيام نوع من التعاون المشترك ما بين الأهالي وممثلي السلطة العثمانية في المدينة.

واتصل بحرف نظافة الأسواق والأحياء حرفة الكنّاس، وكانت مهمته تنظيف طرقات وشوارع وأزقة المدينة من الأوساخ والأقذار، ثم يقوم بتجميع القمامة في أماكن معينة، ويتقاضى أتعابه من أصحاب الحوانيت[٢٤٨].

ويرتبط بحرفة الكنّاس حرفة الزبّال، وهو من يجوب الشوارع والأحياء، ومعه دابة تحمل سريجة كبيرة وقفة من خوص ومجرفة، فيجمع زبالة المنازل وتلك التي خلفها الكناسون، وحين تمتلىء السريجة بما جمعه، ينتقل إلى البساتين، فيأخذها الفلاحون، ويستخدمونها كسماد للبساتين. وبذلك كان يستفيد من هذا العمل الطرفان، الفلاحون الذين يحصلون على السماد مجاناً، والمدينة التي تتخلص مجاناً من نفايات منازلها وأسواقها[٢٤٩].

ويتصل بحرف خدمة أسواق المدينة وأحيائها، حرفة الرشاش، وهو من يقوم برش الشوارع والأسواق الترابية بالمياه، لكي لا تتعرض للضرر بضائع الحوانيت، من جراء الغبار المتصاعد بسبب كثافة حركة المرور، أو لإضافة جو من البرودة على الأسواق في فصل الصيف الحار، وجرت العادة على أن ترش الأسواق مرتين في فصل الصيف، مرة قبل فتح الحوانيت وأخرى بعد الظهر، نظراً لكثرة الغبار في هذا الفصل، أما إذا كان الفصل شتاء، فترش الأسواق مرة واحدة عند الصباح بعد كنس الأسواق والشوارع، لقلة الغبار المتصاعد في هذا الفصل. وكان لكل سوق أو شارع رشاش مختص به أو أكثر، حسب كبره أو صغره، ويقوم بعمله مقابل مبلغ معين يتقاضاه شهرياً من أصحاب الحوانيت[٢٥٠].

ويتصل بحرف الخدمات العامة المتعلقة بالأسواق والأحياء، حرفة الحارس، وهو من يقوم بحراسة الحوانيت والخانات والأزقة والأحياء لمنع تعرضها للسرقة والنهب في أثناء الليل، ويكون المولج بهذه الخدمة مسؤول من قبل قائد شرطة المدينة. فما أن يحل الليل، حتى ينتشر الحراس في الشوارع والأسواق والأحياء، بهدف تأمين الأمن الليلي، فلا يغادرونها إلا عند مباشرة الأهالي لأعمالهم صباح اليوم التالي بعد صلاة الفجر. وفي أغلب الأحيان تكون مسؤولية الأمن الليلي مزدوجة، أي مؤلفة من الحراس المعنيين من قبل قائد الشرطة، ومن حراس آخرين معينين من قبل سكان الأحياء وحرفيي الأسواق يطلق عليهم اسم «المواطنين»، ومن الواجبات الملقاة على عاتق الأخيرين، مراقبة منازل وحوانيت الذين عينوهم، ومراقبة حراس قائد الشرطة الذين كانوا يتمتعون بسمعة سيئة(٢٥١). وأشارت المصادر المعاصرة عن وجود مركزين لتجمع حراس مدينة صيدا، الأول أودة في سوق الخدرية وآخر في سوق العقادين(٢٥٢).

وهكذا تضاعف عدد سكان مدينة صيدا في خلال الحكم العثماني، وانحصروا داخل أسوار المدينة، حيث انتشرت الأسواق الرئيسية، وتجنبوا تشكيل ضواحٍ وإنما تجمعوا في أحياء مستقلة، تسكنها أسر متجانسة توجد فيما بينها بعض الروابط الطبيعية. ورغم الجمود وابتعاد السلطة العثمانية الحاكمة عن كل ما من شأنه تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة، فقد شهدت كغيرها من مدن العالم الإسلامي، تنظيمات حرفية في مجال التسويق والإنتاج والخدمات، انحصر نشاطها في القسم الشمالي من المدينة حول خان الفرنج، على شكل أسواق متنوعة متخصصة في إنتاج سلع محددة وبيعها، واستطاعت أن تؤمن للمدينة كل ما تحتاجه في حياتها اليومية. وانحصر بعض الحرف في نطاق بعض الأسر، التي توارثت أنماطاً حرفية ضمن الأسرة الواحدة، حتى أن أسماء تلك الحرف غدا لقباً اختص به أفراد هذه الأسر. كما أن هذه الطوائف الحرفية استطاعت في المجال الاجتماعي، على أن تحافظ على بعض الميزات السائدة في المجتمع، كما أنها بتنظيماتها وأخلاقيتها المهنية، قد ساعدت على تطوير مستوى الأخلاق بعامة.

●

الهوامش

(٧٩) إسماعيل حقي. لبنان مباحث علمية واجتماعية، ج ٢ ص (٤٥٦ ــ ٤٥٨).
(٨٠) منير سنو. مرجع سابق، ص (١٢١ ــ ١٢٢).
(٨١) المرجع نفسه. ص ١٦٦.
(٨٢) احمد عارف الزين. تاريخ صيدا، ص ١٢٨.
(٨٣) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢٦.
(٨٤) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ١١٧.
(٨٥) رشيد غازي. منتهى المنافع في أنواع الصنائع، ص ١٤٣.
(٨٦) المرجع نفسه. ص (١٤٤ ــ ١٤٥).
(٨٧) توما كيال. برتقال صيداء، المشرق م ٦ ص ٢٩٧.
(٨٨) محمد القاسمي. مرجع سابق، ص ٢٥٣.
(٨٩) المصدر نفسه. ص ٣٠٩.
(٩٠) المصدر نفسه. ص ٢٥٣.
(٩١) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ١٢٥.
(٩٢) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٥١.
(٩٣) ISMAIL. op.cit. t. 3 p. 105.
(٩٤) إسماعيل حقي. مرجع سابق، (٤٤٨ ــ ٤٤٩).
(٩٥) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ٩٣.

(٩٦) المرجـع نفسه. ص ١١٥.
(٩٧) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص ١٩٣.
(٩٨) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص (٩٧ ــ ٩٨).
(٩٩) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٤٠٠ ــ ٤٠١).
(١٠٠) Mémoires, op.cit., pp. (302-303).
(١٠١) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص ١٧٣.
(١٠٢) المرجـع نفسه. ص (٨٧٧ ــ ٨٧٩).
(١٠٣) عبد الكريم رافق. مرجـع سابق، ص ١٧٧.
(١٠٤) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٥.
(١٠٥) المرجـع نفسه. ص ١٤١.
(١٠٦) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٢٧٠.
(١٠٧) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١١١.
(١٠٨) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٣٨.
(١٠٩) المرجـع السابق، ص ١١٢.
(١١٠) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١١١) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٨٣.
(١١٢) المصدر نفسه. ص ١٨٠.
(١١٣) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١١٧.
(١١٤) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ٢٢١؛ ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص (١٦ ــ ١٧).
(١١٥) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٨٦ ــ ٨٧).
(١١٦) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١١٨.
(١١٧) إسماعيل حقي. مرجـع سابق، ج ٢ ص ٤٤١.
(١١٨) MASSON. Histoire... 18e siècle. op.cit., p. 438.
(١١٩) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص ٣٧٢.
(١٢٠) op.cit., 18e siècle, p. 438.
(١٢١) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص (١٢٣ ــ ١٢٤).
(١٢٢) المرجـع نفسه. ص ١١٤.
(١٢٣) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٣١٤ ــ ٣١٥).
(١٢٤) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ١٧٣.
(١٢٥) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص ٢١.
(١٢٦) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٦٨.
(١٢٧) المرجـع نفسه. ص ١١٦.
(١٢٨) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١٢٩) محمد كرد علي. خطط الشام، ج ٤ ص ٢٢٨.
(١٣٠) طلال المجذوب. تاريـخ صيدا الاجتماعي (١٨٤٠ ــ ١٩١٤)، ص ١٦٩.
(١٣١) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١٣٢) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢٢.
(١٣٣) المصدر نفسه. ص (٣٤٨ ــ ٣٤٩).
(١٣٤) احمد عارف الزين. مرجـع سابق، ص ١٢٧.
(١٣٥) ادفيك شيبوب. الحرف والصناعات الشعبية، ص (٣٠ ــ ٣٧).
(١٣٦) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١٣٧) Loc.cit.
(١٣٨) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٤٧٩ ــ ٤٨٠).
(١٣٩) ISMAIL. op.cit., T. 3 P. 105.
(١٤٠) المصدر السابق، ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧.
(١٤١) رشيد غازي. المرجـع سابق، ص ٦٧٧.
(١٤٢) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٤١٣ ــ ٤١٤).
(١٤٣) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٣١.
(١٤٤) المرجـع نفسه. ص ١٤٠.
(١٤٥) ادفيك شيبوب. مرجـع سابق، ص ٣٥.

(١٤٦) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص (١١٢ ــ ١١٣).
(١٤٧) محمد كرد علي. مرجـع سابق، ج ٤ ص ٢٤٥.
(١٤٨) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص (٨٧ ــ ٨٨).
(١٤٩) مفرد كردان، وهي كلمة فارسية تعني العنق.
(١٥٠) محمد كرد علي. مرجـع سابق، ج ٤ ص ٢٤٥.
(١٥١) ادفيك شيبوب. مرجـع سابق، ص (٨٧ ــ ٨٩).
(١٥٢) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص (٢١٠ ــ ٢١١).
(١٥٣) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ١٣٦.
(١٥٤) ادفيك شيبوب. مرجـع سابق، ص (١٢٤ ــ ١٢٥).
(١٥٥) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص ٧٩.
(١٥٦) مرجـع سابق، ص (١٢٤ ــ ١٢٥).
(١٥٧) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٤٠.
(١٥٨) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص (١٦٣ ــ ١٧٠).
(١٥٩) Abdel-Nour. op.cit., p. 81.
(١٦٠) ISMAIL. op.cit., t. 1 p. 23.
(١٦١) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص (١٢٢ ــ ١٢٣).
(١٦٢) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص ٢٦٩.
(١٦٣) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص ٢٠٥.
(١٦٤) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٠.
(١٦٥) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص ٩٠.
(١٦٦) المرجـع السابق، ص ١١٩.
(١٦٧) أنطوان عبد النور. تجارة صيدا مـع الغرب، ص ١٦٥.
(١٦٨) Mémoires, op.cit., t. 1 p. (309-320).
(١٦٩) Ibid. p. 320.
(١٧٠) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٠.
(١٧١) ARVIEUX. t.1 pp. (301-302).
(١٧٢) فؤاد يحيـى. (جرداتري بخانات دمشق) **الحوميات الأثرية السورية** م ١٣ ص ٧١ ــ ٧٣.

(١٧٣) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص ٥٨.
(١٧٤) المصدر نفسه. ص ٣٧١.
(١٧٥) المصدر نفسه. ص ٣٠٢.
(١٧٦) المصدر نفسه. ص ٣٤٨.
(١٧٧) MASSON. Histoire... 17e siècle, op.cit., p. (454-455).
(١٧٨) هنري غينر. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، ج ١ ص (١٥٤ ــ ١٥٥).
(١٧٩) أنطوان عبد النور. مرجـع سابق، ص ١٥٦.
(١٨٠) MASSON. Histoire... 17e siècle, op.cit., p. 159.
(١٨١) هنري غينر. مرجـع سابق، ج ١ ص (١٦٤ ــ ١٦٧).
(١٨٢) op.cit., p. 492.
(١٨٣) المصدر السابق، ج ١ ص ١٦٧.
(١٨٤) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٨.
(١٨٥) عبد الرحيم حجازي. دليل معالم صيدا الإسلامية، ص ١٢.
(١٨٦) هنري غينر. مصدر سابق، ج ١ ص (٣٠ ــ ٣١).
(١٨٧) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص ٢٦٧.
(١٨٨) غسان سنو. مرجـع سابق، ص (١٢٥ ــ ١٣١).
(١٨٩) المرجـع نفسه. ص ١٠٩.
(١٩٠) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٤٦.
(١٩١) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١١٤.
(١٩٢) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٨٧.
(١٩٣) ليلى الصباغ. مرجـع سابق، ص (١٥٠ ــ ١٥١).

(١٩٤) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص (١٥٥ ــ ١٥٦).
(١٩٥) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٨٧.
(١٩٦) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (١٠٧ ــ ١١٢).
(١٩٧) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٧.
(١٩٨) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٩٠.
(١٩٩) المرجـع نفسه. ص ٨٩.
(٢٠٠) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٧.
(٢٠١) انظر الخريطة رقم ٩ في دائرة المساحة.
(٢٠٢) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٩٠.
(٢٠٣) انظر في دائرة المساحة الخريطة رقم ١٠ من خرائط مدينة صيدا.
(٢٠٤) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٨٩.
(٢٠٥) Mémoires, op.cit., t. 1 p. 303.
(٢٠٦) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٦.
(٢٠٧) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢٣.
(٢٠٨) غسان سنو. مرجـع سابق، ص (١٢٦ ــ ١٢٧).
(٢٠٩) الفصادة تعني شق العرق لإخراج الدم منه.
(٢١٠) الحجامة: إخراج الدم بالمحجم، وهي آلة كالقرن مجوفة، رفيعة الراس مثقوبة الفم، ويقوم الحاجم بامتصاص الدم بعد شرط الجلد بآلة حديد كالموس. وقد يحجم الحجام بغير القرن، مثل كاسات الهوى. انظر: محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٩٢.
(٢١١) المصدر نفسه. ص ٤٣٦.
(٢١٢) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١١٨.
(٢١٣) محمد المجذوب. مرجـع سابق، ص ١٦٩.
(٢١٤) ISMAIL. op.cit. T. 3 P. 105.
(٢١٥) المصدر نفسه. ص (١٥٦ ــ ١٥٧).
(٢١٦) ISMAIL. op.cit. T. 3 P. 105.
(٢١٧) المصدر نفسه. ص ٨٣.
(٢١٨) أسعد خياط. صوت من لبنان، ص (٣٠ ــ ٣١).
(٢١٩) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ٧٠.
(٢٢٠) المرجـع نفسه. ص ١٠٧.
(٢٢١) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٧٦.
(٢٢٢) طلال المجذوب. مرجـع سابق، ص ٣٧١.
(٢٢٣) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ١٥١.
(٢٢٤) محمد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٥٩ ــ ٦١).
(٢٢٥) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٤٠.
(٢٢٦) طلال المجذوب. مرجـع سابق، ص ٣٧١.
(٢٢٧) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(٢٢٨) الجص (بفتـح الميم) وهو ما يطبـخ فيصير كالحجارة فيبني به وتسميه العامة الجفصين. انظر: لويس المعلوف. المنجد في اللغة والأدب، ص ٩٢.
(٢٢٩) محمد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٥٢ ــ ٥٣).
(٢٣٠) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص ٢٠٨.
(٢٣١) المصدر السابق. ص ١٤٩.
(٢٣٢) طلال المجذوب. مرجـع سابق، ص ٢٦٣.
(٢٣٣) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص (٢٣٩ ــ ٢٤٠).
(٢٣٤) المرجـع نفسه. ص (٢٣٠ ــ ٢٣١)؛ ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص (١٨٦ ــ ١٩٢).
(٢٣٥) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص (٣٦٤ ــ ٣٦٥).
(٢٣٦) المصدر نفسه. ص ١٣٤.
(٢٣٧) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ٩٧.
(٢٣٨) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٤٠٨ ــ ٤٠٩).
(٢٣٩) Abdel-Nour. op.cit., pp. (351-52).

(٢٤٠) ISMAIL. op.cit., t. 3, p. 105.
(٢٤١) op.cit., p. 354.
(٢٤٢) غسان سنو. مرجع سابق، ص ١٤٤.
(٢٤٣) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص (٩٦ — ٩٨).
(٢٤٤) المصدر نفسه. ص ١٦٨.
(٢٤٥) المصدر نفسه. ص ٢١٨.
(٢٤٦) ARVIEUX. op.cit. T. 1 P. 328.
(٢٤٧) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٦٤.
(٢٤٨) Abdel-Nour. op.cit., p. 207.
(٢٤٩) Ibid. p. 208.
(٢٥٠) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٥٦.
(٢٥١) Abdel-Nour. op.cit., p. 207.
(٢٥٢) غسان سنو. مرجع سابق، ص ١٣٦.

مكتبة البحث

(أ) الوثائق غير المنشورة:

Archives Nationales de Paris

Réperatoires numériques de la sous-serie B[1], correspondance Consulaire, Lettres Reçues:

postes consulaires	Numéros des volumes	Nombres des volumes	Années
Seyde	1017	1	(1645-1704)
	----	---	--------
	1041	25	(1785-1790)

(ب) وثائق منشورة:

ISMAÏL, Adel. Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du proche — orients du XVII[e] siècles à nos jours. 33 tomes, Editions des oeuvres politiques et historiques, Beyrouth, 1975-1987.

(جـ) الرحلات:

— بهجت وتميمي، (رفيق ومحمد). ولاية بيروت، جزءان في واحد، بيروت، ١٩٧٩، الطبعة الثانية.
— غينر، هنري. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، تر. ، مارون عبود، جزءان، بيروت، ١٩٤٩ — ١٩٥٠.
— فولني، فرنسوا شاسبوف. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، تر. ، حبيب السيوفي، جزءان، المجلة المخلصية، صيدا، ١٩٤٨ — ١٩٤٩.
— كارن، جون. رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، تر. ، رئيف خوري، بيروت، ١٩٤٨.
— النابلسي، عبد الغني. التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، مخ، حققه وقدم له هربرت بوسه، بيروت، ١٩٧١.

— ARVIEUX, (chev., Laurent). Mémoires du chev., d'ARVIEUX, 6 vols, Paris, 1735.
SAINT-AIGNAN, (M. l'Abbé Laurent de). La terre sainte, Syrie, et Istme de Suez Paris, 1808.

(د) مخطوطات:

الدمشقي، مخايل. تاريخ حوادث جرت بالشام وساحل بر الشام والجبل من سنة ١١٩٧ — ١٢٥٧هـ، من مجموعة مكتبة يافت في الجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956.9/058TA).

عبود الصباغ تاريخ ظاهر، من مجموعة مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/980/N16TA).

نوفل، نوفل نعمة الله. كشف اللثام عند محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام، من مجموعة مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956/N32KA).

(هـ) مصادر أصلية:

— ابن الإخوة (محمد بن محمد أحمد القرشي). معالم القربة في أحكام الحسبة، نشر روبن ليوى، كمبردج، ١٩٣٧.
— ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي). المدخل إلى الشرع الشريف، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢.

ـ العظم والقاسمي، خليل وظافر. قاموس الصناعات الشامية، الجزء الثاني، نشر موتون وشركاه، باريس ـ لاهاي، ١٩٦٠.
ـ القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية، الجزء الأول، نشر موتون وشركاه، باريس ـ لاهاي، ١٩٦٠.
ـ البديري، أحمد (الحلاق). حوادث دمشق اليومية (١٧٤١ ـ ١٧٦٢)، مخ. ، نشره احمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٥٩.
ـ الشهابي، حيدر. الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، مخ. ، نشره فؤاد افرام البستاني واسد رستم تحت عنوان «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٤٩.
ـ العورة، إبراهيم. تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، يشتمل على تاريخ فلسطين ولبنان ومدنه وبلاد العلويين والشام، مخ. ، نشره الأب قسطنطين الباشا، صيدا، ١٩٣٦.
ـ الصباغ، ميخائيل. تاريخ الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد، حريصا، (لبنان) (لا.ت).
ـ المنير، حنانيا. الدر المرصوف في تاريخ الشوف، مخ. ، نشره الأب اغناطيوس سركيس في مجلة المشرق، م ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١، بيروت ١٩٥٤ ـ ١٩٥٧.

(و) المؤلفات والبحوث:

ـ حجازي، عبد الرحمن. دليل معالم صيدا الإسلامية، صيدا، ١٩٨٣.
ـ حقي إسماعيل. لبنان مباحث علمية واجتماعية، جزءان، بيروت، ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠.
ـ رافق، عبد الكريم. بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥.
ـ رمضان، محمد رفعت. علي بك الكبير، القاهرة، ١٩٥٥.
ـ زين، أحمد عارف. تاريخ صيدا، صيدا، ١٩١٣.
ـ سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٠.
ـ سليمان، أحمد السعيد. تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩.
ـ سنو، منير غسان. مدينة صيدا (١٨١٨ ـ ١٨٦٠)، بيروت، ١٩٨٨.
ـ شيبوب، ادفيك. الحرف الشعبية في لبنان، بيروت، ١٩٧٤.
ـ صباغ، ليلى. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣.
ـ عبد النور، انطوان. تجارة صيدا مع الغرب، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٣.
ـ غازي رشيد. منتهى المنافع في أنواع الصنائع، م. الأدبية، بيروت ١٣١٣/١٨٩٦.
ـ غرايبة، عبد الكريم. سوريا في القرن التاسع عشر، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢.
ـ قاسم، قاسم عبده. دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٣.
ـ كرد علي، محمد. خطط الشام، ٦ أجزاء، دمشق، ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨.
ـ لكروي، إدوارد. احمد باشا الجزار واعماله في سوريا ولبنان وفلسطين، تر. ، جورج مسرة، ساوبولو، (البرازيل)، ١٩٢٤.
ـ المجذوب، طلال. تاريخ صيدا الاجتماعي (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ١٩٨٣.
ـ مرهج، عفيف. إعرف لبنان.
ـ مصطفى، أحمد عبد الرحيم. أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٢.
— ABDEL-Nour, Artoine. Introduction à l'histoire Urbain de la syrie ottomane, (XVI[e] -XVIII[e] siècle), publication de L Université Libanaise, Beyrouth, 1982.
— CHARLES-Rovx. Les Echelles de Syrie, et de palestine au XVIII siècle, paris, 1982.
— EISLEN, Fredrieck, Carl. SIDON A Study in oriental history, New York, the Columbia university press, 1907.
— MASSON, Paul. Histoire du commerce Français dans le Levant au XVII=[e] siècle, t. 1, paris, 1886.
— ———. Histoire du commerce Français dans le levant au XVIII[e] siècle, t. II, Paris, 1911.
— MARMARDJI, (O.P.). textes géographiques arabes sur la palestine, Paris, 1951.
— PARIS, Robert. Histoire du commerce de Marseille, t. 5, de 1660 à 1789, Paris, 1957.

(ز) رسائل جامعية غير منشورة:

SHAMIR, Shimon. The Azmc Waly of Syria, (1724-1785) A Dissertation presented to the Faculty of PRINCETON University, in condidacy for the degree of Doctor of philosophy, 1960.

(ح) الـدوريـات:

ــ سليمان، حسين سلمان. (بيروت ودمشق تحتلان مكانة صيدا وحلب الاقتصادية)، **تاريـخ العرب والعالم**، السنة الثالثة، العدد ٣٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٨١، ص ٤٨ وما يليها.

ــ ـــــ . من ملامـح الحياة الاجتماعية في صيدا، **المقاصد**، السنة الرابعة، العددان ٤٠ ــ ٤١، آب ــ أيلول، ١٩٨٥، ص (٣٤ ــ ٤٢).

ــ الكيال، توما. (برتيقال صيدا) **المشرق** السنة السادسة، ١٩٠٣، ص (٢٨٨ ــ ٣٠٠).

ــ يحيـى، فؤاد. جرداتري بخانات دمشق، **الحوليات الأثرية السورية**، السنة ١٣، ١٩٨١، ص (٦٧ ــ ١٠٦).

الوثائق

مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية في باريس. .

وحدة حفظها: par les Ministères et les administrations qui dependent (serie F).

رقمها في وحدة الحفظ: F 1250ᶜ Tripoli de Syrie

موضوعها: سليمان باشا (١٨٠٥ ــ ١٨١٩) والي طرابلس وصيدا يستجيب للقنصل الفرنسي في طرابلس، ويرسل إلى مصطفى آغا بربر متسلم[١] ولاية طرابلس مرسوماً بشأن تنظيم جمارك الولاية.

تاريخها: ٢٣ جمادي الأول ١٢٢٧هـ (١٨١٢/٦/٥).

صورة المرسوم الصادر من سعادة افندينا ولي النعم

... صدر أمر سلطاني بخصوص كمارك الممالك المحروسة أنها تكون جميعها على السوية وأنه بكل عام في افتتاح محرم الحرام تتمن الأرزاق بسعر الرايـج والشيء الذي يساوي مابة وعشرين غرش يتمن بماية غرش ويندفـع كمرك في الماية عن الإسلام أربعة غروش ومن الذميون أربعة غروش ونصف ومن طوايف الإفرنـج، فإذا كان المال حاضر من بلادهم أم متوجه إلى بلادهم فيدفعوا في الماية ثلاثة غروش وإذا كان الممالك الإسلامية من محل إلى محل فيدفعوا في الماية أربعة غروش ونصف مثل الرعايا فالآن بلغنا أن واقـع اختلاف عندكم بأمر الكمارك في طرابلس واللاذقية وعمال يأخذوا على تعريفة قديماً وفي ممالك حاصل اختلال على كامل الكمارك الممالك المحروسة فلزم الآن إخباركم بذلك لكي تنظموا أمور الكمارك بطرفكم على مقتضى الأمر السلطاني وعلى ما هي سالكة به الممالك المحروسة جميعها لأجل راحة الأطراف والأنحاء وما يلزم لكم زيادة توكيد بذلك والسلام. ٢٣ جمادى سنة ١٢٢٧.

سليمان باشا
والي صيدا وطرابلس حالاً

Je sousigné Drognan en second atteste que la copie du Buiurdi[2] ci dessus de Soliman Pacha de seyde, Tripoly et Lattaquie m'a été delivré sur la demande de Monsieur le consul de france à Tripoly de Zadé Mustapha Aga Barbar Kan dans cette ville et Lattaquie par son Arabi Katidé à Tripoly de Syrie le 21 Juin 1812 signé (?) second Drogman.

(١) المتسلم. شغل هذا المنصب موظفان كانا كلاهما بمثابة نائب للوالي، فقد اطلق هذا اللقب على حكام السناجق او المقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وأيضاً على نائب الوالي في عاصمة الولاية، وكان مصطفى آغا بربر يشغل هذا المنصب بصفته نائب الوالي على ولاية طرابلس.

(٢) BUIURDI = بيوردي. فعل ماض مبني للمجهول من المصدر التركي بيورمق بمعنى ان يأمر، ومعنى كلمة «بيوردي» هو (أمر بـ ...) تحولت هذه الصيغة الفعلية إلى الإسمية وصارت علماً على الأمر المكتوب بالرسم الهمايوني الصادر من الصدر الأعظم أو من أحد الولاة. وقد كان هذا الاصطلاح يطلق في مصر حتى سنة ١٩١٥ على براءات التعيين حتى الدرجة الثانية، وعلى الشهادة التي يحصل عليها المتخرجون في الأزهر الشريف. احمد السعيد سليمان. تأصيل ما ورد في تاريـخ الجبرتي من الدخيل، ص (٤٩ ــ ٥٠).

مرسوم من سليمان باشا إلى مصطفى آغا بربر بشأن تنظيم جمارك مدينة طرابلس.

((ملحق رقم ٧))

" مرسوم من سليمان باشا الى مصطفى أغا بربر بشأن تنظيم جمارك مدينة طرابلس "

صورة المرسوم الصادر من سعادة افندينا [illegible]

[illegible]

Je soussigné Drogman en second atteste que la copie du [illegible] ci dessus de Soliman Pacha de Seyde Tripoly et Lattaquié m'a été délivré sur la demande de Monsieur Le Consul de France à Tripoly de [illegible] Mustapha Aga Barbar [illegible] Lattaquié [illegible] à Tripoly de Syrie le 27 Juin 1812 — Signé [illegible] second Drog[illegible]

F. L250 Tripoli

من مجموعة أرشيف دار الوثائق القومية في باريس (F. L 250 Tripoli).



معاهدة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب مع أهل إيليا "بيت المقدس"

إعداد: شذا عدرة

يتميز عهد الخليفة الراشيدي عمر بن الخطاب بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و«الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها. ومعاهدته مع أهل إيليا «بيت المقدس» هي من ضمن مجموعة معاهدات أبرمها الخليفة عمر مع أهل الشام وفلسطين، والتي تكمن اهميتها في أنها تتضمن بعض الكتب التي أرسلها إلى عماله في تلك الأصقاع بشأن الحكم في بعض المسائل الحياتية التي اعترضتهم، وهي بالتالي تعطينا صورة واضحة عن الأحكام والقيَم التي كانت سائدة آنذاك في المجتمع الإسلامي.

معاهدة مع أهل بيت المقدس

طب ص ٢٤٠٥ ــ ٢٤٠٦
قابل اليعقوبي ج ٢، ص ١٦٧
انظر لين بول ص ٢٣٢ وما بعدها للنص والبحث فيه

صالح عمر أهل أيليا ــ (يعني بيت المقدس) ــ بالجابية؛ وكتب لهم فيها الصلح، لكل كورة كتاباً واحداً؛ ما خلا أهل أيليا. وأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُدّ على ما سيأتي بعد هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل أيليا من الأمان:

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. إنه لا تُسكَن كنائسهم ولا تهدَم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم، ولا يَسكن بأيليا معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل أيليا أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصُوتَ. فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية. ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم، وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية؛ ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله. فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

حل رموز الاختصارات
المستعملة في اوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
بأ... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.

طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

- إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني.

«عمر بن الخطاب»

- الحرية شجرة الخلد وسقياها من الدم المسفوح.

«؟» عربي

- إن في العصيان المدني ذخراً للقوة.

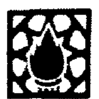
«غاندي»

- الوطنية الصحيحة تعمل ولا تقول.

«؟» غربي

خَـان يُونـس

قسم التوثيق والأبحاث



مدينة عربية من مدن قضاء غزة تقع في أقصى جنوب غربي فلسطين على بعد ٢٠ كم من الحدود المصرية. وقد أصبحت بعد عام ١٩٤٨ ثاني مدينة في قطاع غزة بعد مدينة غزة. وتعرضت في عام ١٩٥٦ للعدوان الإسرائيلي الذي تعرض له قطاع غزة وظلت تقاوم العدوان من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، على الرغم من احتلال بقية أجزاء القطاع. غير أن الجيش الإسرائيلي دخل المدينة في النهاية وأمعن في شبابها قتلاً وتذبيحاً انتقاماً لخسائره الجسيمة أثناء هجومه عليها. وفي حرب ١٩٦٧ صمدت خان يونس كعاتها، وقاتلت الجيش الإسرائيلي بضراوة، واستمرت مقاومة المدينة أربعة أيام كاملة، فكانت بذلك آخر موقع في قطاع غزة سقط في قبضة الاحتلال الإسرائيلي.

أ ــ الموقع الجغرافي: تتمتع مدينة خان يونس بموقع جغرافي هام، فهي النقطة الجنوبية لسلسلة نقاط المدن التي ترصّع السهل الساحلي لفلسطين، وفيها تمر الطريق الرئيسة المعبدة إلى السهل الساحلي وسكة حديد القنطرة ــ حيفا اللتان تربطان مصر ببلاد الشام. وتعد خان يونس وغزة بوابة فلسطين الجنوبية التي عبرت منها إلى مصر الجيوش والغزوات والقوافل التجارية والهجرات البشرية. وخان يونس أشبه بواحة على الحافة الغربية لصحراء النقب التي تعد ظهيراً هاماً. لذا ارتبطت خان يونس بالنقب بطريق تتجه شرقاً عبر قرى بني سهيلة وعبسان وخزاعة. وقد اكتسب موقع خان يونس أهمية خاصة لأنه يمثل نقطة انقطاع بين بيئة النقب الصحراوية وبيئة السهل الساحلي المتوسطية، ولأن منتجات البيئتين تجد في سوق خان يونس مكاناً مناسباً للتبادل.

ب ــ الموضع: تقوم مدينة خان يونس على بقعة منبسطة من جنوب الشريط السهلي الساحلي ترتفع نحو ٥٠ م عن سطح البحر. وتقوم نواة المدينة فوق خط الانقطاع الذي يفصل بين شريط الكثبان الرملية الشاطئية غرباً وتكوينات البليوسين والأوليجوسين المغطاة بالطمي الحديث لحافة النقب شرقاً. وقد ظل هذا الشريط الرملي الذي يبلغ عرضه نحو ٣ كم حداً فاصلاً بين مدينة خان يونس والبحر المتوسط حتى بدأ النمو العمراني الذي شهدته المدينة في ربع القرن الأخير يغزو معظمه فلم يبق منه إلا جزء قريب من شاطىء البحر مخصص لنمو الأشجار الحرجية، ولزراعة بعض المحاصيل الزراعية، ولا سيما النخيل والخضار في منطقة المواصي (والمواصي هي آبار قليلة العمق).

لذا فإن الجزء الغربي الحديث من المدينة أكثر ارتفاعاً من الجزء الشرقي لأنه قام على التلال والكثبان الرملية. كما أن الأجزاء الغربية والجنوبية للمدينة تتألف من تكوينات البلايستوسين الأكثر حداثة من تكوينات الأجزاء الشرقية والشمالية.

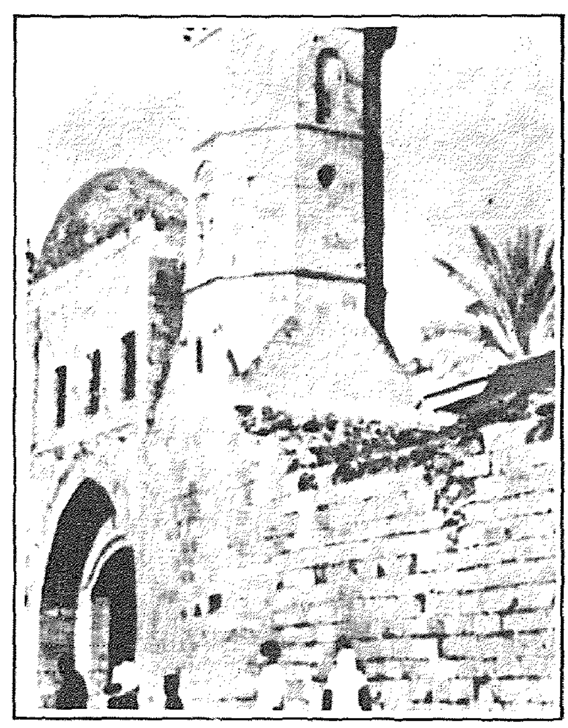
أما عن التربة فإنها فقيرة بوجه عام، وهي مفكّكة تغلب عليها مكونات الرمال والأملاح وتنخفض فيها نسبة الطين والمواد العضوية لأن سطح الأرض تغلب عليه ظاهرة الكثبان الرملية

التي تتخذ شكل شريط مواز لساحل البحر المتوسط. وتسود تربة اللوس التي تزداد فيها الرمال والحصى والطفل كلما اتجهنا شرقاً، وهي امتداد غربي لتربة اللوس في صحراء النقب. وتنحدر من النقب نحو البحر المتوسط بعض الأودية الصغيرة الجافة من أهمها وادي السلقة. وتمر هذه الأودية من الأراضي الشمالية لخان يونس في طريقها إلى البحر ويفيض بعضها شتاء بعد هطول أمطار غزيرة.

جـ ـ المناخ والمياه: ينتمي مناخ خان يونس إلى المناخ شبه الصحراوي الساحلي الذي يتميز بقلة أمطاره الشتوية وتطرفه النسبي. ويبلغ متوسط كمية الأمطار السنوية التي تهطل على المدينة نحو ٢٧٦ مم. وتتذبذب هذه الكمية لعدم انتظام هطول الأمطار من سنة لأخرى. فعلى سبيل المثال بلغت كمية الأمطار التي هطلت على خان يونس في عام ١٩٣٥/٣٦ نحو ١٥٨ مم، وارتفعت في عام ١٩٣٦/٣٧ إلى ٣٥٧ مم. وتتركز الأمطار في أيام محدودة من السنة يقدر عددها بنحو ٤٠ يوماً مطيراً. ويبلغ المتوسط السنوي لدرجة الحرارة نحو ٣١°، ولذا ترتفع قيمة البخر والنتح، ويصبح الريّ أمراً ضرورياً للزراعة حول المدينة.

وبالإضافة إلى مياه الأمطار التي تكفي لنجاح الزراعة في السنوات المطيرة أو العادية تحصل المدينة على المياه من الآبار الموجودة داخلها وحولها. وتستخدم مياه الآبار لأغراض الشرب والزراعة، وهي حسنة النوعية عموماً، باستثناء تلك التي تشوبها الأملاح. ويحصل المزارعون في منطقة المواصي الممتدة بمحاذاة شاطىء البحر المتوسط على المياه العذبة بحفر حُفَر لا تزيد في عمقها عن مترين. وإذا كانت المواصي ذات مياه جوفية قريبة جداً من سطح الأرض فإن أعماق بقية الآبار في خان يونس تراوح ما بين ٢٠ و ٤٠ م.

د ـ النشأة والتطور: يرجّح بعض الكتّاب والمؤرخين أن مدينة خان يونس بنيت على أنقاض مدينة قديمة كانت تعرف بإسم جنيسس Jenysus ذكر هيرودوتس أنها تقع جنوبي مدينة غزة.



□ جامع قلعة برقوق في خان يونس على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً جنوب غزة.

وخان يونس الحالية حديثة النشأة نسبياً، إذ لا يزيد عمرها على ستمائة سنة إلا قليلاً. وكان الهدف من بنائها حماية التجارة وخطوط المواصلات الحربية بين مصر والشام أيام المماليك. فقد أرسل السلطان المملوكي برقوق حامل أختامه الأمير يونس النيروزي الدوادار لبناء قلعة في ذلك الموضع، وبنيت القلعة على شكل نزل، ولذلك أطلق عليها الخان.

كانت القلعة أشبه بمجمع حكومي كامل، وكانت تقيم فيها حامية من الفرسان، وفيها مسجد تطل مئذنته من فوق سور القلعة. وقد حفر بداخل القلعة بئر للمياه، وأقيم فيها نزل للمسافرين وإسطبل للخيول. وعلى أسوار القلعة الخارجية أربعة أبراج. وقد أنجز بناء القلعة في عام ٧٨٩ هـ. ويبدو أنه بعد مرور نحو ثلاثمائة عام على إنشاء القلعة استطابت إحدى الحاميات الإقامة فيها مع أُسرها، ثم جاء آخرون وسكنوا خارج الأسوار فنشأت بذلك مدينة خان يونس.

تطورت هذه المحلة حول الخان فصارت قرية زاهرة، ثم ارتقت فغدت بلدة فمدينة في ربع القرن الأخير. وقد كانت خان يونس في العهد العثماني مركز ناحية ثم أصبحت قصبة. وفي

عهد الانتداب البريطاني زاد حجمها وتألف أول مجلس بلدي عام ١٩١٨، واتسعت رقعتها على مساحة أرض بلغت أواخر عهد الانتداب نحو ٢,٥٠٠ دونم منها ٣٤٥ دونماً للطرق.

بلغ عدد سكان خان يونس في عام ١٩٢٢ نحو ٣,٨٩٠ نسمة. ثم زاد عددهم إلى ٧,٢٤٨ نسمة في عام ١٩٣١، وإلى ١٢,٣٥٠ نسمة في عام ١٩٤٦. وبعد نكبة عام ١٩٤٨ التي نجم عنها تدفق عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين ارتفع عدد سكان المدينة الأصليين وأصبح في عام ١٩٦٣ نحو ١٩,٦٦٩ نسمة يضاف إليهم نحو ٤٨,٢٧٥ نسمة من اللاجئين. وقدر عدد سكان خان يونس عام ١٩٧٩ بنحو ٩٠,٠٠٠ نسمة منهم ٣٠,٠٠٠ نسمة من سكانها الأصليين و٦٠,٠٠٠ نسمة من السكان اللاجئين. ويعود السكان الأصليون بأصولهم إلى مختلف القبائل العربية التي نزلت هذه الديار في الماضي، وإلى مصر، وبينهم جماعات من أصول تركية وشركسية. أما اللاجئون فإنهم هاجروا إلى خان يونس من مختلف المدن والقرى الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وبخاصة من مدن وقرى اللواء الجنوبي في فلسطين.

شهدت خان يونس تطوراً ملحوظاً في نموها العمراني في نهاية الحرب العالمية الثانية. وتشرف بلدية خان يونس على شؤون المدينة المختلفة، وبخاصة تنظيم المدينة وفتح الشوارع فيها وتعبيدها، وإعطاء رخص للمباني الجديدة. وقد بلغ مجموع رخص البناء المعطاة عام ١٩٤٤ من قبل البلدية ٩١ رخصة قيمة أبنيتها ٢٠,٢٠٤ ج.ف. وانفقت البلدية على المدينة في ذلك العام مبلغ ٤,٤٩٠ ج.ف. في حين بلغت وارداتها المالية في العام نفسه ٧,٧٣٩ ج.ف. وقد امتدت المباني السكنية حول وسط المدينة التجاري مباشرة مع توسعها في محور شمالي جنوبي. وبلغ مجموع بيوت المدينة في أواخر عهد الانتداب٢,٠٠٠ بيت تقريباً.

وبعد عام ١٩٤٨ تدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين للإقامة في خان يونس، سواء في بيوت المدينة نفسها أو في مخيم أعدّته وكالة غوث اللاجئين لهم في الطرف الغربي من المدينة. وكان لا بد من مواجهة هذا الوضع الجديد بالتوسع في تشييد المساكن الجديدة وتوفير المرافق العامة من مدارس ومستشفيات وعيادات صحية ومياه وكهرباء ومواصلات وغيرها. وتوسع الوسط التجاري وزحفت المحلات التجارية والمباني السكنية نحو الغرب لتلتحم بمثيلاتها في مخيم البحر. وتضاعفت مساحة المدينة بسبب هذا التوسع العمراني الذي اتخذ شكل المحاور على طول شارع القلعة وشارع البحر والطرق المؤدية لبني سهيلة (مدخل المدينة) ورفح والقرارة.

هـ ـ **التركيب الوظيفي**: امتهن سكان خان يونس في بادىء الأمر التجارة وخدمة المسافرين، وهي حرفة أشبه بصناعة «الفندقة» في عصرنا الحاضر. واتجه كثير من السكان بعدئذٍ إلى العمل في الزراعة الجافة، ثم عرفت الزراعة المروية مؤخراً نتيجة الاستفادة من المياه الجوفية سواء أكانت مياه الآبار أم مياه المواصي على شاطىء البحر. ومنذ عام ١٩٤٨ مارس بعض السكان، ولا سيما اللاجئين، الصناعة. ومعظم صناعات المدينة من النوع الخفيف، وأهمها المنسوجات التي يصنعها بعض اللاجئين من أبناء مدينة مجدل عسقلان.

وقد تطورت حرفة التجارة في خان يونس بفتح المحلات التجارية الكبيرة والمعارض. وبالإضافة إلى الوسط التجاري للمدينة يقام فيها كل يوم خميس سوق كبيرة يأتيها التجار والمشترون من داخل خان يونس وخارجها. وأهم ما يباع فيها الحيوانات والأقمشة والفخار ومشتقات الألبان والخضر والفواكه وغيرها.

تبلغ مساحة أراضي خان يونس ٥٣,٨٢٠ دونماً منها ١,٤٣٣ دونماً للطرق والأودية والسكة الحديدية والباقي يمثل مساحة المدينة نفسها والأراضي الزراعية المحيطة بها. وتمتد معظم الأراضي الزراعية في شمال المدينة وجنوبها، ويتركز جزء منها في منطقة شاطىء البحر. وأهم المحاصيل الزراعية التي تنتجها خان يونس الحبوب بأنواعها، والفواكه بأصنافها، ولا سيما البطيخ والبلح، وجميع أنواع الخضار. وكانت الزراعة حتى عهد قريب تعتمد على الأمطار، ولكن تطور الوسائل والمعدات

الزراعية دفع الأهالي إلى استصلاح المزيد من الأراضي وحفر الآبار فزادت نسبة الأراضي الزراعية المروية، ولا سيما تلك التي تنتج الحمضيات والخضر. وتنتج أراضي المواصي المروية كثيراً من أصناف الخضر والفواكه كالبندورة والجوافة والبلح والحمضيات والمانجا. وقد أكسبت هذه المزارع شاطىء بحر خان يونس منظراً جميلاً فأصبح محط أنظار الأهالي يقصدونه لقضاء العطل والأعياد بغرض المتعة والاستجمام.

وإلى جانب القطاعات الإنتاجية، كالزراعة والصناعة والتجارة، تعد المدينة مركزاً إدارياً وتعليمياً في جنوب قطاع غزة، وتتركز فيها كثير من الدوائر الحكومية لكونها عاصمة المنطقة الجنوبية للقطاع. وتتبعها مدينة رفح ومجموعة من القرى المجاورة كبني سهيلة وعبسان الصغيرة والكبيرة وخزاعة وغيرها. وكان فيها مقر الحاكم الإداري المصري للمنطقة الجنوبية من القطاع في عهد الإدارة المصرية (١٩٣٨ — ١٩٦٧). وأما من الناحية التعليمية فإن خان يونس اشتملت في عهد الانتداب على مدرستين حكوميتين إحداهما ثانوية للبنين والأخرى ابتدائية للإناث. ومنذ عهد الإدارة المصرية حتى اليوم تضاعف عدد المدارس مرات، فضمت المدينة عشرات المدارس الثانوية والإعدادية والابتدائية للبنين والبنات. وتطورت الحياة التعليمية والثقافية لسكان المدينة نتيجة ارتفاع نسبة المتعلمين فيها. ●

المراجع:

— مصطفى مراد الدباغ: **بلادنا فلسطين**، ج ١، ق ٢، بيروت ١٩٦٦.

— خريطة فلسطين، مقياس١: ٥٠,٠٠٠، لوحة خان يونس.

● **نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية — المجلد الثاني، ١٩٨٤.**

قصة معاوية مع عبد الله بن الزبير

● كان لعبد الله بن الزبير أرض متاخمة لأرض معاوية بن أبي سفيان، قد جعل فيها عبيداً من الزنوج يعمرونها. فدخلوا على أرض عبد الله. فكتب إلى معاوية:

أما بعد يا معاوية، فامنع عبدانك من الدخول في أرضي وإلا كان لي ولك شأن.

فلما وقف معاوية على الكتاب — وكان إذ ذاك أمير المؤمنين — دفعه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه قال له:

يا بُنيّ، ما ترى؟

قال: أرى أن تُنفذ إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك، يأتوك برأسه.

قال: أو خَيْر من ذلك يا بنيّ؟ عليّ بداوة وقرطاس.

وكتب:

وقفت على كتاب ابن حواريّ رسول الله، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها عندي هيّنة في جنب رضاه. وقد كتبت له على نفسي صكاً بالأرض والعبدان، وأشهدت عليّ فيه، فليستضفها مع عبدانه إلى أرضه وعبيده. والسلام.

لما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه:

وقفتُ على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحلّه من قريش هذا المحل. والسلام.

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله، رماه إلى ابنه يزيد، وقال له:

يا بنيّ، إذا بُليت بمثل هذا الداء، فداوه بمثل هذا الدواء.

من كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» للتنوخي

معهد عالمي للعلوم الإسلامية في واشنطن

● أنشىء في العام الماضي بواشنطن (الولايات المتحدة الأميركية) معهد يهدف إلى الارتقاء والتقدم بالعلوم الإسلامية، من خلال التركيز على ثلاث مجالات رئيسة، وتطبيق التكنولوجيا الحديثة عليها، وهي: الفلسفة الإسلامية، علم الاجتماع، تاريخ العلوم، ثم الاقتصاد الزراعي الإسلامي والنظم البيئية والحياة الأخلاقية الطبية.

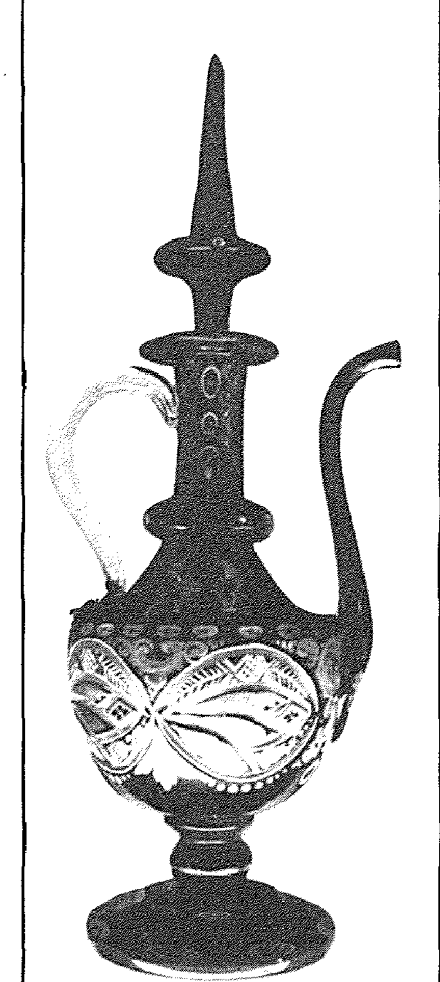
ويلقى هذا المعهد الذي أطلق عليه إسم: المعهد العالمي للتكنولوجيا والعلوم الإسلامية الدعم من قبل المنظمات الإسلامية في أميركا وخارجها.

ويذكر أن هناك مجموعة من الشخصيات العربية والإسلامية المعروفة وراء إنشاء المعهد. ومنها: الدكتور محمد عبده يماني (السعودية)، الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو (تركيا)، حكيم محمد سيد (الباكستان).

المؤرخون العرب: هيئة عليا لكتابة تاريخ الأمة

● شهد العام الحالي نشاطات عديدة قام بها اتحاد المؤرخين العرب في بغداد، وقدم من خلال خدمات جليلة للأمة العربية وللمشتغلين في التأريخ لها، وللاجيال الجديدة. وفي برنامجه للعام المقبل نشاطات جديدة أخرى.

وقد تمثلت هذه النشاطات في مؤتمرات وندوات تاريخية، تكريم المؤرخين العرب، الإعداد لإعادة كتابة تاريخ الأمة، إصدار ادلة للرسائل الجامعية ولنتاجات المؤرخين، إجراء دراسات حول مناهج التاريخ في مراحل التعليم العام، توحيد مناهج وخطط الرسائل العلمية في الجامعات.



ويمكن إجمال هذه النشاطات في النقاط التالية:

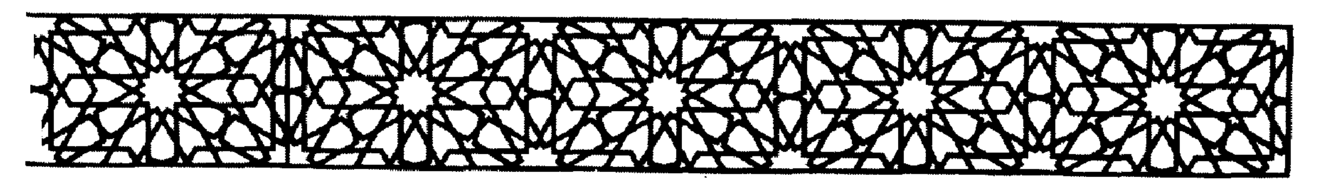
ـــ تشكيل هيئة عليا تضم مؤرخين ممتازين من الأقطار العربية، وتجتمع سنوياً لوضع منهج عربي لكتابة تاريخ الأمة.

ـــ عقد مؤتمرات وندوات تاريخية في مختلف البلاد العربية. وسيتم في العام المقبل عقد مؤتمرات أخرى بالتعاون مع عدد من المؤسسات العلمية، في بعض الأقطار العربية والأوروبية والأميركية.

ـــ منح نخبة متميزة من المؤرخين العرب كانت قد رشحتهم الجمعيات التاريخية في الوطن العربي شهادة «وسام المؤرخ العربي»، وذلك تقديراً لجهودهم العلمية في ميدان البحث التاريخي.

وسيتم تكريم نخبة جديدة في العام المقبل. وقد بادر الاتحاد إلى إعداد دليل عن سيرة المرشحين للوسام، وإعداد وسام مصنوع من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة، لتوزيعه على المرشحين في حفل يقام في الأندلس.

ـــ جعل يوم ٢ أكتوبر من كل عام عيداً للمؤرخ العربي، وذلك بمناسبة مرور ٨٠٠ عام على تحرير العرب للقدس من الإفرنج.



ـ إعداد دليل لعناوين رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ والآثار لجامعات الوطن العربي كافة. وسيتم طبعه في جزأين العام المقبل، وكذلك إعداد دليل للنتاج العلمي للمؤرخين العرب.

ـ التحضير لإجراء دراسة مقارنة للكتب المنهجية في التاريخ في كل مراحل التعليم: الابتدائي والمتوسط والإعدادي والجامعي ومن المقرر أن تنجز هذه الدراسة في العام المقبل. وكان الاتحاد قد أرسل إلى وزارات التعليم والثقافة في الأقطار العربية، وحصل منها على الكتب المقررة في بلادها.

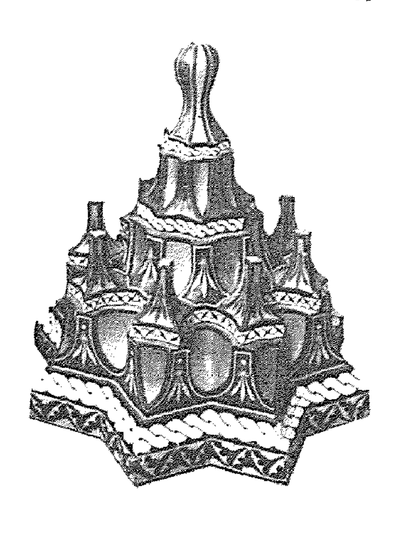
ـ الشروع بجمع مناهج وخطط الرسائل العلمية (الماجستير، الدكتوراه) في التاريخ في جامعات الوطن العربي، وذلك بغية توحيدها وطبعها ووضعها بين أيدي الأساتذة المتخصصين.

ويذكر أن الاتحاد يصدر كل ثلاثة شهور مجلة محكمة، ويحتوي العدد على ٢٢ بحثاً باللغة العربية، والأجنبية، بالإضافة إلى الأبواب الثابتة، وقد طبع منها الآن ٣٤ عدداً.

كما يملك ارشيفاً الكترونياً، يحتوي على ملفات ١٢ ألف مؤرخ عربي، من كل الأقطار العربية، وكذلك على ملفات للمؤرخين العرب خارج الوطن العربي.

من ناحية أخرى وصل إلى المجلة بيان من الأمانة العامة للاتحاد، مذيلاً بتوقيع الأمين العام الأستاذ مصطفى عبد القادر النجار، تضمن انتقاداً حاداً لظاهرة إعادة طبع الكتب بعد حذف أسماء مؤلفيها، وما يترتب على ذلك من سلب الحقوق المشروعة العلمية والمادية لهؤلاء المؤلفين.

وأشار البيان في هذا الصدد إلى مركز الخدمات والأبحاث الثقافية في بيروت أصدر مؤخراً كتاباً بعنوان: «مخطوطات الخزانة العمرية في مكتبة المتحف العراقي»، ووضع عليه إسم أمين قسم المخطوطات فيه كمال يوسف الحوت.



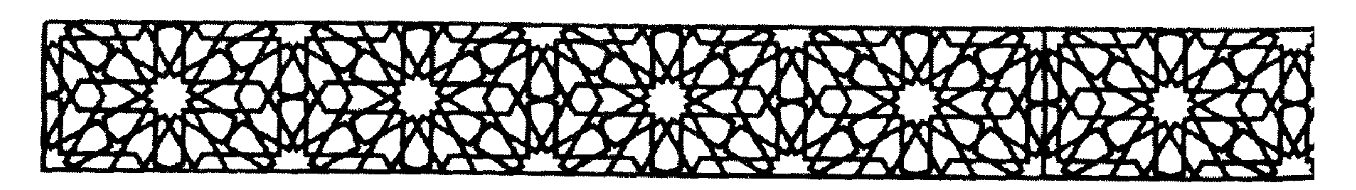
وأكد البيان أن الكتاب المذكور، من تأليف أسامة ناصر النقشبندي، ونشر مجلة المورد، (ص ٣٤٩ ـ ٣٧٦ من المجلد الثامن لسنة ٧٩).

ودعا البيان إلى وضع حد لهذه الظاهرة، وناشد المراكز الثقافية والعلمية اتخاذ الإجراءات الممكنة لتحقيق هذه الغاية.

مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية بتونس

● يُعدُّ مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية (الأندلسية) والتوثيق والمعلومات مركزاً فريداً من نوعه في العالم العربي والإسلامي، وقد استطاع خلال فترة وجيزة (مضى على إنشائه حوالي ثلاث سنوات) من تحقيق نتائج طيبة، كانت ثمرة لجهوده على أكثر من صعيد. ويرجَع الفضل في إنشاء هذا المركز الذي يتخذ من مدينة زغوان التونسية مقراً له إلى الدكتور عبد الجليل التميمي الأستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعة تونس، الذي تمكن بجهد فردي من تحقيق الجزء الأول من المشروع، والمتمثل في بناء المكتبة التي سيتم تدشينها قريباً، وسوف تحتضن مائة ألف كتاب، في ستة عشر جناحاً، وستكون مجموعة الدكتور التميمي الشخصية النواة الأولى فيها.

ويهتم المركز بإقامة تعاون شامل مع كل المراكز المتخصصة على الصعيدين العربي والدولي، والاهتمام بالقضايا التي عزف عنها الباحثون، فضلاً عن الجامعات، ومنحها أولية الأوليات في المستقبل.



حكاية السَّفّاح وزوجته وخالد بن صفوان

دخل خالد بن صفوان[1] على الخليفة أبي العباس السفّاح فوجده خالياً، فقال:

يا أمير المؤمنين، أنا أترقّب مُذ تقلّدتَ الخلافةَ أن أجدك خالياً فأُلقي إليك ما أُريده.

قال: فاذكر حاجتك.

قال:

يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك فلم أر مَن هو في مثل قدرك أقلّ استمتاعاً بالنساء. وقد مَلّكتَ على نفسك امرأةً واحدة، واقتصرتَ عليها، فلان مرضَتْ مرضْتَ، وإن غابتْ غبْتَ، وإن غضِبَتْ حُرِمتَ! وإنما التّلذُّذُ باستطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهن، والاستمتاع بهنّ. فلو رأيتَ الطويلةَ البيضاء، والسمراءَ اللَّفّاء، والصفراءَ العجْزاء، والغَنِجَةَ الكَحْلاء، والمولَّدات من المَدَنيّات، والمِلاح من القُنْدُهاريّات، ذوات الألسن العذبة، والقُدود المُهَفْهَفَة، والثُّدِيّ المُحَقَّقَة!...

وجعل خالد بعذوبة لفظه واقتداره على الوصف يزيد في قوله. فلما فرغ من كلامه، قال السفاح له:

والله يا خالد ما سَلَكَ سمعي قطّ كلامٌ أحسن من هذا. لقد حرّك مني ساكناً!

وبقي السفاح مفكراً عامة نهاره. ثم دخلت عليه زوجته أم سَلَمة، فلما رأته دائم الفكر، كثير السُّهو، قليل النشاط، قالت:

إني أُنْكِرُك يا أمير المؤمنين. فهل حدث ما تكرهه؟

ولم تزل به حتى حدّثها بخبر خالد بن صفوان.

قالت: فما قلتَ لابن الفاعلة؟

قال لها: سبحان الله! رجل نصحني تسبّينه؟!

فخرجت من عنده متميزة غضباً، وأرسلت إلى خالد بجماعة من غلمانها العجم ومعهم العصيّ، وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضواً صحيحاً.

أما خالد فقد انصرف من عند السفاح وهو على غاية السرور بما رأى الخليفة عليه من الإعجاب بحديثه، وقعد على باب داره يتوقع جائزته. فلم يشعر إلا بالغلمان، وتحقّق مجيئهم بالجائزة. فلما وقفوا على رأسه سألوه عن ابن صفوان، فقال: هأنذا. فأهوى بعضهم بهراوته إليه. فوثب خالد ودخل داره، وغلّق بابه واستتر، وعرف هفوته وزلّته في فعله وكلامه، وعلم من أين أُتِيَ.

ثم إنه مكث أياماً مستتراً. فلم يشعر ذات يوم إلا بجماعة من خدم السفاح قد هجموا عليه، فقالوا:

أَجِب أمير المؤمنين!

فأيقن بالهَلَكَة، وركب معهم وهو بلا دَم. فلما دخل عليه وسلّم فرَدّ عليه، سكنت نفسه بعض السّكون. وأومأ إليه بالجلوس فجلس. ونظر خالد فإذا خلف السفاح باب عليه سُتُور قد أُرْخِيت، وأحسّ بحركة خلفه.

ثم قال الخليفة: يا خالد، لم أرك منذ أيام!

فاعتلّ عليه. فقال له:

ويحك! إنك وصفتَ لي آخر يوم كنتَ عندي فيه من أمر النساء والجواري ما لم يخرِق سمعي قطُّ مثلُه. فأعِدْه عليّ!

قال: نعم. أعلمتُك يا أمير المؤمنين أن العرب اشتقّت اسم الضُّرَّتين من الضُّرّ، وأن أحدهم لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جُهد وكَدّ.

قال السفاح:

ويحك، لم يكن هذا في كلامك!

قال: بلى. وأخبرتُك أن الثلاث من النساء كأَثافِيّ القِدْر تغْلي عليهن!

قال السفاح: برئتُ من قرابتي من رسول الله إن كنتُ سمعتُ هذا منك في حديث!

قال: بلى. وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌّ مجموع لمن كُنّ عنده؛ يُهْرِمْنَه ويُنَغِّصْنَ عليه عَيْشه، ويُشَيِّبْنَهُ قبل حينه!

قال السفاح: والله ما سمعتُ هذا قط منك ولا من غيرك!

قال: بلى يا أمير المؤمنين لقد قلتُ.

قال: ويلك، تكذِّبُني؟

قال: يا أمير المؤمنين، فتريد قتلي؟

فسُمع ضحك شديد وراء الستر. فقال خالد:

وأعْلَمْتُك أن عندك ريحانة قريش، وانه لا يجب أن تطمحَ نفسُك إلى غيرها من النساء!

فسُمع من وراء الستر صوت يقول:

صدقتَ والله يا عمّاه، ولكن امير المؤمنين غيّر وبدّل، ونطق عن لسانك بغير ما ذكرتَه!

وخرج خالد إلى منزله، فلم يصل إليه حتى وجّهت إليه ام سَلَمة ثلاثة تُخوت فيها انواع الثياب، وخمسة آلاف درهم!

من كتاب «الهفوات النادرة» لمحمد بن هلال الصابىء.

(١) خالد بن صفوان (توفي عام ٧٥٢م) احد رواة الشعر والقصص والخطب، عرف بالفصاحة وسرعة البديهة وكان مقرباً إلى الكثير من خلفاء الأمويين ثم إلى الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية.

المتنبّي وبائع البِطّيخ

قيل للمتنبي:

قد شاع عنك من البُخْل في الآفاق، ما قد صار سَمَراً بين الرِّفاق. وأنت تمدح في شِعرك الكرمَ وأهلَه، وتذمّ البخل وأهله. ألستَ القائل:

ومن يُنفِقُ الساعاتِ في جمع ماله

مخافةَ فقرٍ، فالذي فَعَل الفقرُ

ومعلوم أنّ البخل قبيح، ومنك أقبح، فإنك تتعاطى كبرَ النفس، وعُلوَّ الهمَّة، وطلبَ المُلْك. والبخل ينافي ذلك.

فقال:

إن للبُخل سبباً، وذلك أني أذكر اني وردتُ في صباي من الكوفة إلى بغداد. فأخذتُ خمسة دراهم بجانب منديلي، وخرجت امشي في أسواق بغداد. فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، ورأيت عنده خمسة من البِطّيخ باكورة. فاستحسنتها، ونويت أن اشتريها بالدراهم التي معي. فتقدَّمتُ إليه وقلت:

بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ؟

فقال بغير اكتراث:

اذهب، فليس هذا من أكْلِك!

فتماسكتُ معه وقلت:

يا هذا، دع ما يغيظ واقصِد الثمن.

قال:

ثمنها عشرة دراهم!

فَلِشِدَّة ما جَبَهَني[1] به ما استطعتُ أن اخاطبه في المساومة. فوقفتُ حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل. وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان[2] ذاهباً إلى داره، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان، ودعا له، وقال:

يا مولاي، هذا بِطيخ باكورة، بإجازتك[3] أحمله إلى البيت؟

فقال الشيخ:

ويحك، بكم هذا؟

قال:

بخمسة دراهم.

قال:

بل بدرهمين!

فباعه الخمسة بدرهمين، وحملها إلى داره، ودعا له، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل.

فقلت:

يا هذا، ما رأيتُ اعجب من جهلك، اسْتمْتَ[4] عليّ في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنتُ قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم، فَبِعْتَه بدرهمين محمولاً!

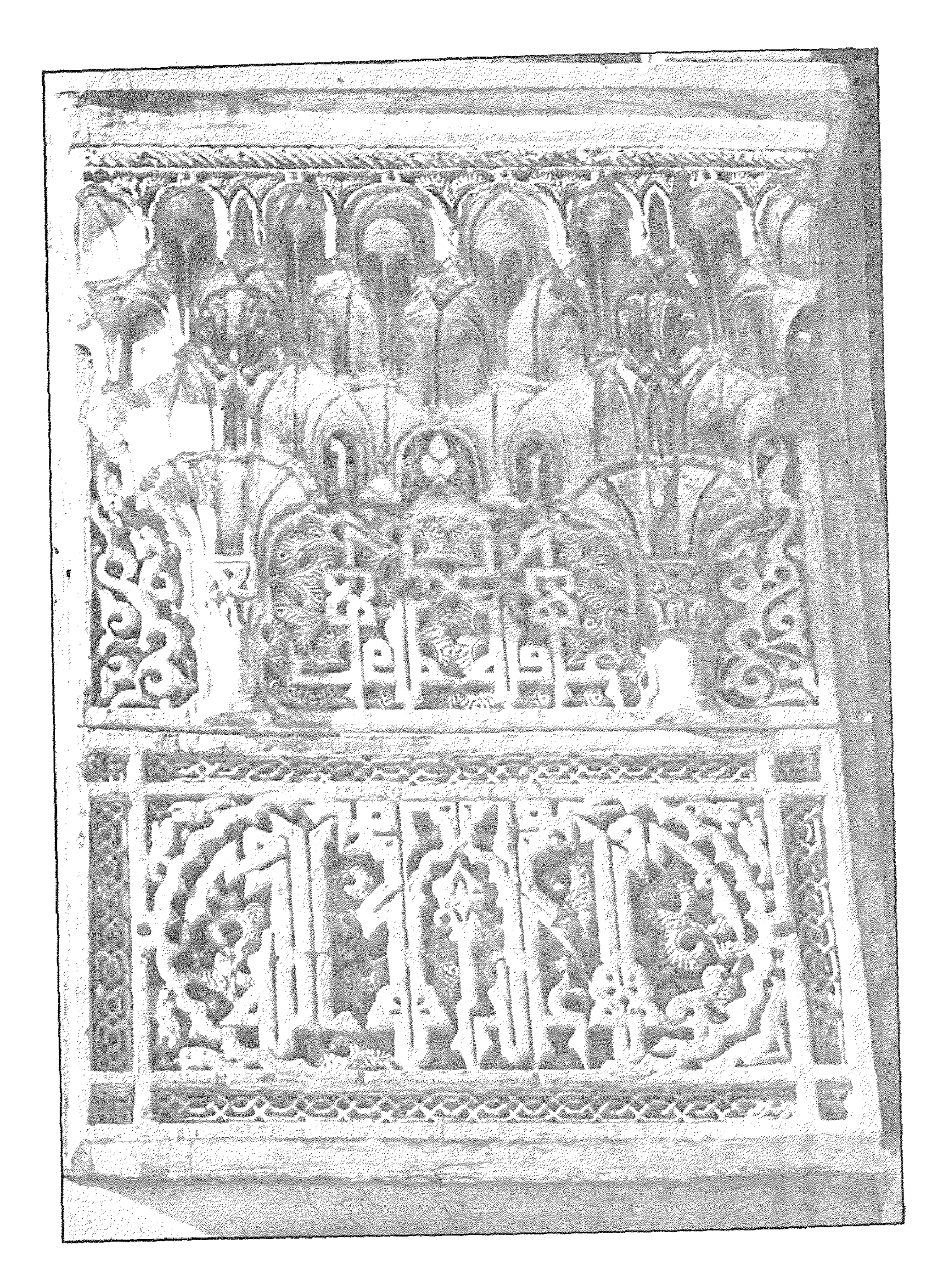
فقال:

اسكت! هذا يملك مائة ألف دينار!

فعلمتُ أن الناس لا يُكرِمون احداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار. وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيِّب قد ملك مائة الف دينار.

من كتاب «الصُبح المُنْبي عن حيثية المتنبي» ليوسف البديعي.

(١) جَبَه: صَدَم.
(٢) الخان: كلمة فارسية ومعناها هنا إما الحانوت أو محل نزول المسافرين (الفندق).
(٣) بإجازتك: بعد إذنك.
(٤) استام البائع على المشتري: غالَى في الثمن المطلوب.



□ «مقرنسة» في قصر الحمراء